بير سكران

رواية

رواية

بير سكران

أحمد عبدالعزيز

" بير سكران" .. رواية

أحمد عبد العزيز

رقم الإيداع: .....

تصميم الغلاف: نزار مغاوري

صورة الغلاف: رباب الخشن

تصحيح لغوي: مصطفى صقر

الناشر

مؤسسة المعبر الثقافي بالقاهرة

٢٣ شارع عبد الخالق ثروت ـ القاهرة

٠٠٢٠١٠٢٨٥٧٣٣٩٩ -٠٠٢٠١٢٧١٧٧٩١١٦

إهداء

(١)

سعد.. سعد.. يحيا سعد

سعد.. سعد.. يحيا سعد

اختلط صوتُ الهُتافات في الشارع بصوت الطرقات المُتتابعة بقوّة وبعشوائيّة مُزعجة فوق باب الحُجرة الخشبيّ.

لم تُفلح وسادة «ناجي» الموضوعة فوق رأسه في مَنعِها، أو حتى تقليل قوّتها وحِدّتها.

ألقى «ناجي» الوسادة، وهو يزفرُ بضيق وغضب، ويفتح عَينيه بصعوبة، وتتسلل الأصواتُ المُختلطة لرأسه الثقيل الثمل تباعًا؛ لينتبه للمرة الأولى لصوت هتاف الشارع:

ـ سعد.. سعد.. يحيا سعد.

يَمدُّ يدَه يسارًا؛ يبحثُ عن علبة الدّخان، فيصطدم مِعصمُه بكوب الماء؛ ليسقط أرضًا مُتهشّمًا.

يتوقف صوتُ الطرقات فوق الباب لثوان، قبل أن يشقَّ رأسَه صوتُ السِّت «أم هدى» الحَادّ:

- يُوه، ما إنتَ صاحي أهُوه يا أخويا؟.

يضعُ «ناجي» سيجارته في فَمه، وهو ينهضُ مُتأففًا ويحاول السَّير، مُتجنبًا زجاج الكوب المكسور.

يفتحُ الباب لجَارته البدينة «أم هدى»، التي لا تَكفُّ أبدًا عن التدخُّل في حياته:

- يَالهوي عليك يا سِي ناجي، إنتَ نايم كل دَه، ومِش دَريَان بإللي بيحصَل؟

- يا ست قُولي صباح الخير.

- وهَييجي مِنين الخير، وإنتَ نايم، والبلد كلها واقفة على رِجل واحدة؟

- يا فتاح يا عليم ع الصّبح.

- صُبح إيه يا أخويا؟، سلامة النظر، الظهر اِذَّن من ساعتين؟

- خِير يا أم هدى.. عَايزه إيه؟

- يادِي النِّيلة، إنتَ لسه مِش واخِد بالك يا ناجي أفندي؟

- واخِد بَالي من إيه يا وليّة؟، ما تنطقي عايزه إيه؟

– البلد مُولعة، وسِي سعد اِتنفَى، والثورة قامت وإنت لسه ما قُومتش مِن النوم؟

– آه، مَعلشِي.... أصلي بَقالي فترة ما شُفتش سعد باشا؟

– آدي إللي بناخدُه مِنك، نَأوَرة وبس؟

– يا وليّة وإنتِ مالك، هُو إنتِ من بَقيّة أهلي؟

– تُشكر يا ناجي أفندي، أنا يا أخويا الحَق عليَّ إن جِيت أصحيك تنزل مع زُملاتك الأفندية؟

– لأ يا سِتي مالكيش دعوة إنتِ، أنا مِتفق معاهم هما يثوروا، وأنا أنام؟

– حَقة؟.. بَطلُوا دَه واسمعُوا دَه، يا راجل دِي حتى النّسوان ماشية تهتف في الشارع؟

– وإنتِ ما نزلتيش معاهم ليه؟، ولا إنتِ مِش نِسوان؟

– يا راجل اِعمِلك هِمّة واِنزل، ولا إنتَ عاجبك حال البلد؟

– قُوليلي يا أم هدى، إنتِ لسه ما عرفتيش جُوزك طِفِش لِيه؟

تُقطّبُ حاجبيها بغضب واضح، وهي تلفُّ جسدها الضخم، عائدة لحُجرتها الصغيرة فوق السطح، وهي تتمتمُ بسخط شديد:

- راجل عِرّة، ويَاما في الدنيا رجّالة عِرر؛ ماحصّلوش حتى النّسوان؟

أغلق «ناجي» باب حُجرته، وهو يبتسمُ؛ لانتصاره على تدخُّل جارته «الحِشريّة» في حياته.

يعلمُ كم هي طيبة القلب، ولا تحملُ أيَّ شر تجاه أحد، ولولاها ما استطاع العيشَ بمُفردِه. فقط بعشرينَ قرشًا في بداية كلِّ شهر عند تسلُّم راتبه تُعِدُّ له طعامه، وتغسلُ ملابسه، وتقوم بكل شؤونه. وعلى الرغم من لسانها السّليط، وأنفِها المحشور في حياته، فإنّه لا يستطيعُ الاستغناء عنها، وعن خدماتِها.

أيضًا لا يُمكنه بأيّ حال من الأحوال أن يشيحَ ببصره عن أطفالها الصغار، الذين يملأ صراخُهم سطح البيت القديم المُتهالك، وهو يعلمُ أن والدهم قد تركهم بلا رجعة، وفَرّ من طلباتهم بنَذَالة لا يُمكن وصفُها.

تقدّم نحو مشربيّة حُجرته، وأزاح الضلفة قليلًا؛ ليُشاهد جُموع السائرينَ تبتعد، ويخفت صوتُ هتافاتِهم رويدًا رويدًا.

لم تكُن السياسة تشغله بأيِّ حال من الأحوال، ولا أمور البلد برُمّتها، في الحقيقة لم يكُن شيء يشغله على الإطلاق.

يملكُ نظرة واحدة ثابتة نحو كلِّ شيء، يرى كلَّ الأمور بلون واحد، وحجم واحد، ويتعاملُ مع كلِّ الأخبار كأنّها أحدُ فصول حكاية قديمة، من حكايات الأوّلين.

لم يُفكر أبدًا في إقامة أيّ عَلاقة مفهومة المعنى، أو معروفة الوصف، يجلسُ خلفَ مَكتبه الخشبيّ في «المصلحة»، مُنكس الرأس، تحسبُه مشغولًا مُدققًا، أو مُوظفًا مثاليًّا مُهتمًا بعمله؛ يقومُ به على أكمل وجه.

لكنّه في الحقيقة يتحاشى النظر في وجوه زملائه، يخشى من تلك الجُمل التى يَعقبُها حديث، ثم سرد ثم شكوى، فيسقط في بئر الصداقة والاختلاط التي يمقتها ويتجنّبها، لا لشيء سِوى أنّه لا يُحب أن يَعلمَ عنه أحدٌ أيَّ شيء.

يُحِبُّ حياته المُغلقة الغامِضة لكل من حوله، كلُّ الناس فشلوا في اقتحام حصن خصوصيته المنيع؛ الذي بناه حول نفسه مُنذ سنوات طويلة.

فقط جارته «أم هدى»؛ هي الوحيدة صاحبة السَّبْق في التدخُّل في حياته، وكيف يُمكنه منع ذلك؟؛ وهي تستقبله كلَّ يوم فجرًا، وهو عائدٌ من الخارج؛ إذ يكون ثملًا مُتطوحًا؛ يرتطمُ جسده بالجُدران؛ من فرط سُكْره.

هي الوحيدة التي تعلمُ أفعاله، وتسندُ جسده الذي تفوحُ منه رائحةُ الخمر، وعرقُ النساء كل يوم، وتفتحُ له باب حُجرته، وتلقي جسده المُتعب فوق فِراشِه الصغير.

كان مُقابل ذلك يُجبر على سَماع لومِها له كلَّ صباح، دونَ كلل أو مَلل، وهي تنصحُه بالزواج، وترك حياة المُجون و«المَشي البَطال»، مع تخويفها الدائم له:

ـ «يا خُوفي يا سِي ناجي يجيلك المرض البَطال».

كان يصبرُ على لسانها وطول حديثها؛ فقط من أجل صِغارها الذين بشكل أو بآخر يشعر بأنه المسؤول عنهم؛ بعد هُروب والدِهم.

عطفُه ومساعدتُه لهم كانا يسريان في جسده، كمُطهّر يجعله يشعر بأنه نبيٌّ من الأنبياء؛ بُعث من أجل إطعامِهم، حتى وإن كان أبدًا لم يَربتُ على رأس أحدهِم.

ولمَ لا؟ فقد كان مثلهم يومًا ما، ابنًا يتيمًا يعيشُ مع والدتِه، في عزلة خلف باب حُجرتهما الضيقة؛ ينتظر معها مُساعدة أمثاله، مِمّن يُكفّرونَ عن خطاياهم؛ بالعطف على الأرامل والأيتام.

الثورة والحِراك في الشارع يُؤرقان عقله دائمًا، فأصحاب البارات والخمّارات وبيوت المتعة يخشون من بطش الإنجليز، وكثيرًا ما يُغلقون أبوابهم في وجه أمثاله؛ فيقضي ليله كله يلعنُ ويسبُّ كلَّ من تسبَّب في ذلك، حتى وإن كان «سعد باشا» نفسه، ورفاقه.

تعلّم العزلة من تلك المرأة النحيلة المَحنيّة الظهر، التي كانت تخشي عليه من كل شيء وأي شيء، حتى لا يكون مصيره مثل والده، جُثة مُمزقة في مُنتصف الطريق؛ نتيجة رعونة أحد الأثرياء.

كانت دائمًا تُخبره بأنهما ضعيفان؛ بلا سَند أو مَلاذ، ولولا عطفُ الشيخ «جابر» عليهما؛ ما استطاع حَمل شهادة الابتدائية، والعمل كموظف في إحدى المصالح.

لم يُهمل القدر والدته أن تتذوقَ طعمًا للدنيا غير الفقر والاحتياج؛ لتُفارق الحياة سريعًا، وتتركه وحيدًا أكثر ممّا كان، ليُغادر حُجرتهما القديمة، ويُجاور «أم هدى» في حُجرة أكثر اتساعًا، تدخلها الشمسُ، ويتجدّد فيها الهواء.

طغى اللونُ الأسودُ على كل شيء خارج حُجرته الصغيرة، مُعلنًا قدوم الليل، ليتهلل وجهُه من الفرحة، ويرتدي بذلته الرماديّة، ويقف أمام المِرآة يُمشط شعر رأسه المُجعّد، قبل أن يُغطيه بطربوشه المُستقيم.

له قامة طويلة، وجسدٌ مُتناسقٌ ووجه جميل، ببشرة خمريّة، وشارب مُهندم؛ يؤكد وسَامته.

يُهرولُ خارجًا وهو مُضطرب، يملأ قلبَه القلقُ؛ أن يَجدَ البار مُغلقًا.

ما إن لمحَ ببصره أنوار البار، وتطرّق لسمعه صوتُ الموسيقى؛ حتى رقص قلبُه فَرحًا، وضاعف من سُرعة حركتِه؛ حتى وصل لمقعده المُعتاد في الركن الجانبيّ شِبه المظلم، والنّادلُ المُتمكنُ من معرفة طلباتِ زبائنِه يضعُ أول كأس كُونياك أمامه، وهو يبتسمُ بترحاب شديد.

تجرّع «ناجي» الكأسَ مرة واحدة، على غير عادته؛ كأنه يُثبت لنفسه أنه موجودٌ بالفعل في البار، وأنه يُمكنه احتساء الخمر.

عدة كؤوس أخرى؛ كانت كافية حتى تهدأ نفسُه، ويسري السُكْر في جسده، وترتخي عضلاته، ويبدأ رأسه في التراقص، يمينًا ويسارًا مع صوت المُوسيقى، وهو يتابعُ بشغف جسد راقصة البار الفاتنة، التي

تتناغم حركتها مع لمسات السّكارى، فلا تدعهم ينالون أكثر من لمس جسدِها ولا تمنعهم عنه.

اقتربت الساعةُ من مُنتصف الليل؛ فنهضَ بجسده الثمل، وأخرج ورقة ماليّة دسّها في يد النادل، وهو يُشير له برأسه مُمتنًّا، ويُغادر البار في طريقه لبيت «سنيّة» البادرونة.

سنيّة تملكُ «كرخانة» شهيرة، عبارة عن منزل من طابقين، وتحتَ يدِها أكثر من عشر فتيات، يعملن كـ «مقطورات».

أمام البيت ألقى التحيّة، بتهذب مُبالغ فيه على «عطوة»، حارس الكرخانة الضخم المفتول العضلات، الذي يرتدي فانلة قطنيّة واحدة، سوداء اللون، صيفًا وشتاء.

في الطابق الأول تخطّى «ناجي» دُخان البخور الكثيف، وهو يُزيحه من أمام وجهه بكفَّيه، ويكتمُ رغبته في السّعال حتى وصل لمجلس «سنية» الوثير، وهي تجلسُ فاردةً إحدى ساقيها أمامها، وتمسكُ خرطوم «الجُوزة» بيدها، تنفثُ دخان المعسل المُختلط بالحشيش؛ ليصنع مع دخان البخور تلك الرائحة التى تُلهب صدره، وتشعره بضيق التنفس والرغبة في السعال الشديد.

اقترب منها، وانحنى بجذعه؛ وهو يقبّل يدها السوداء النحيفة الخشنة، المليئة بالندوب، وهو يبتسمُ باصطناع واضح:

- مساء الجَمال على أحلى «بادرونة» في بر مصر كله.

- مساك حلو زي وشِّك يا ناجي أفندي.

تلفّت حوله كمَن يبحثُ عن شيء ما في وجوه الجالسين، ثم نظر لسنيّة يسألها بصوت خفيض:

- أومّال فين «نعيمة» يا معلمة؟

- يُوه، هو كلِّ يوم نعيمة؟

- نعيمة هي إللي عارفة مزاجي وبتريّحني يا بادرونة.

- يا أخويا غيّر، البنات قدامك على كل شكل ولون.

- يعني هي مِش موجودة؟، ولا مع حَد من الزباين؟.

- لأ يا سِيدنا الأفندي، مِش موجودة.

اختفت ابتسامتُها، وحَلت الصرامة والحِدة محل بشاشة وجهها الأسمر، وهي تنادي بحزم:

- عَليّة... بت يا عليّة.

- أيوه، نَعمين يا معلمة.

تقدمت «علية» نحوهما بردائها الفضيّ اللامع الضيق، الذي يُخفي خلفه جسدًا شديد الأنوثة؛ لتقف أمامهما؛ وهي تضعُ إحدى يديها في وسطها، وتنظر لناجي بشبق، رغم أنها تُحدِّث سنيّة:

- أوامرك يا سِتي.

- خُدى يا بت سِي الأفندي، واطلعي على فوق.

- هِيء هِيء... من عُيونى يا معلمة.

- تعضُّ على شَفتِها السُّفلى، وهي تمُدّ يدها تمسك بيد «ناجي»:

- اتفضل يا أفندي.

يمشي خلفها، وهو يرى مِشيتها المُثيرة، وتأرجُح مُؤخّرتها المُمتلئة وهي تتراقصُ أمام بَصره بميوعة شديدة، لا يُمكن بأي شكل توقع حركتها، أو استنتاج مُعادلة هندسيّة رياضية لتلك الحركة المُنافية كل قواعد الحساب والإدراك.

أغلقت «عليّة» بابَ الحُجرة؛ وتمدّدت بجسدها فوق الفِراش المُتسخ، وهي تحرك أناملها ببطء فوق مُنحنى خصرها الحاد:

- مالك يا سِي ناجي، واقف ليه؟

- هَه، لأ أبدًا، مفيش.

تجرّد ناجي من ملابسه دفعة واحدة، وألقى جسده بين ذِراعي «علية»، التي لم تتعرّ مثله، واكتفت فقط بأن رَفعَت رداءها، حتى أسفل رقبتها.

عقله المشوش ورائحة فمها الكريهة جعلاه يتحاشى رغبتها في تقبيله، ليصطنع الشبق؛ ويدفن وجهه بجوار رأسها في وسادتها المُزرية، ويتحرك بكل قوته حتى ينتهي الأمر في دقيقتين، وتزكم رائحة عرقها أنفه فيقاوم رغبته في التقيؤ بإشعال سيجارة؛ ينهل منها بتتابع سريع؛ لكي يتغلب برائحة التبغ على رائحة «علية النتنة».

تمسك «علية» بخُصلة من شعرها، تلفها على خِنصَرها، وهي تحرك فَمها يمينًا ويسارًا بتحسُّر وسُخريّة:

- أصُبِّلك كاس يا سِي ناجي أفندي؟

ينظر لها نظرة سريعة، قبل أن يشيحَ عنها ببصره، وهو يُحكم إغلاق بنطاله، ويُمسك بزجاجة البيرة الموضوعة فوق المنضدة الحديديّة، ويتجرّع من فم الزجاجة بنَهم، ثم يجلسُ على حافة الفراش، وهو يتجشأ بقوة وصوت مرتفع، وعلية تُحرك يدها خلف ظهره:

- صِحتين على قلبك يا أخويا.

ينظرُ لها بتفحّص وهو يسحبُ آخر نفَس في سيجارته، ثم يُحدثها بتلعثم واضح:

- أومّال فين نعيمة؟

- قلتلى بقى، هي مَقصُوفة الرقبة دي السبب؟

- السبب في إيه؟

- لأ يا أخويا، ما تخدش في بالك.

يُخرجُ من جيبه «شلن» ويدسّه في يدها، وهو يغمز لها بتودّد:

- فين «نعيمة» بصحيح؟

- بعيد عنك، وعن السامعين، سِتي بَعتتها عند اللهمّ احفظنا المعلم «إبراهيم الغربي».

- يُقطبُ حاجبيه مُندهشًا:

مِين المعلم «إبراهيم» ده؟، ولِيه المعلمة تِبعتها عنده؟

- أنا أقولك، بس وحياة سيدنا النبي ما تجيب سيرة لمخلوق إني حكيتلك حاجة لأحسن أحصّلها.

- قولي، ما تخافيش.

- دِيكِ النّهار الزَّفة راحت المستشفى؟

- قاطعها بحدّة وهو يَعتدلُ في جلسته ويُشعل سيجارة جديدة:

- زفة إيه؟

- ما هو يا سِيدنا الأفندي كل كام شهر حتمًا ولا بد المعلمة تعمل زفة، وتاخد كل البنات على مستشفى الحوض؛ لأجل ما يكشفوا علينا.

وبعدين؟

- نعيمة يا كِبدي عليها، طِلعت عيّانة وسِتي عملت المُستحيل علشان ما تِتحجزش في المستشفى، ولولا المُظاهرات بتاعة النهارده ماكانتش عرفت تخرّجها.

ظهرت اللوعة على وجهه؛ حتى إن الرجفة تمكنت من يده؛ لتهتز سيجارته بين أنامله بوضوح:

- عيّانة إزاي، عندها إيه يعني؟!

- وانِي إيش عَرّفنى، أهو يادُوبك رجعنا وسِتي ما قعدتش على حيلها غير لما بعتتها عند بُوز الإخص المعلم «الغربي».

- وليه عِملت كده؟!

- هو سِلو شُغلتنا كده يا أفندي، الواحدة مننا لو جالها المرض تروح للمعلم «الغربى»، يشغلها للزبالين، وكلاب السكك وتاكل ملح وبصل، لحد ما تموت.

- انتفضَ «ناجي» واقفًا وهو يتصببُّ عرقًا؛ والتوتر يملأ كل ملامحه يُكمل ارتداء ملابسه:

- والزفت ده مكانه فين؟

- في كل حِتة، ده عنده أكتر من خَمستاشر بيت، بس أسمع كده إنه في الأزبكية.

خرج «ناجي» مُسرعًا يمتلئ رأسُه بالأفكار، والألمُ يُدمي قلبَه لا يعرفُ ماذا يفعل؟ ولا أين يذهبُ؟.

لم تكُن «نعيمة» عشيقته، أو أسمَعَها يومًا كلمة واحدة من قاموس المُحبِّين، لكنه تعلق بها بكل كيانِه،

وكيف لم يتعلق بها وهو على مدار ثلاثة أشهر لم يغِب عنها ليلة واحدة، حتى إنه في بعض الليالي، لم يُمارس معها الجنس، وكان يكتفي بالنوم على فخذها، ويترك لسانه يحكي ويقصُّ عليها كلّ أمُوره؛ ليتذكر معها جلسته وحيدًا مع والدتِه؛ يقصُّ عليها ويسمع منها.

عرفَ منها كلَّ شيء عن حياتها، وكيف هربت من عذاب وويلات زوجِها؛ لتتلقفها البادرونة «سنية»؛ وتضمّها لكرخانتها؛ وتصبح من ضمن بغاياها، مقطورة تقدم جسدها للزبائن؛ مقابل الطعام والحماية منها.

كان يشعرُ بالونس والألفة؛ وهو بين يديها، تداعب رأسه بأناملها، وتمسد له ظهره أحيانًا، كأنّها زوجته أو حبيبته المُتيّمة.

الوحيدة بين كلِّ فتيات البيوت، التي امتلكت قلبَه مُنذ رآها أول مَرة، بجسدها النّحيل، وبشرتها شديدة البياض، وعينيها الزرقاوين اللتين

جعلتاها تشبه الملائكة. كانت تبدو في هذا المكان كعُصفور ملون محبوس في قفص للقرود.

حرصَ كلّ ليلة على أن يذهبَ هناك؛ حتى لا تقضى ليلتها بين ذِراعي أحد الأفندية، أو المِعلمين، لكنه لم يُفكر يومًا في أن يُخرجها من هذا المصير، اكتفى فقط بحُبها له، وبعض النقود يدسّها في يدها خفية، قبل أن يتركها ويرحل.

تمدّدَ فوق فِراشه في ظلام حُجرته، يؤنّب نفسه ويسبّها، ويلعنها ألف مرة في كل لحظة؛ كلما تذكر أنه كان باستطاعتِه أن يُنقذها ولم يَفعل.

(٢)

مرّت الأيامُ مُتعاقبة بوتيرة واحدة مُمِلة؛ في الصباح تظل تضربُ «أم هدى» بكفّها الغليظة فوق بابه؛ حتى ينتفض عقله، ويَجُر جسده جَرًا؛ ليجلس مُنكس الرأس خلف مكتبه، لا يُكلم أحدًا إلا في حُدود عمله بعبارات مُقتضبة، خالية من أي ود، وفي المساء، يرتدي حُلته ويجلس في ركن البار المُظلم يحتسي «الكونياك» الرخيص الشعبيّ؛ حتى تتبلد أحاسيسُه، وينزوي عقله خلف كؤوس الخمر، ويجرّ ساقيه لبيت «سنية» لا يطلبُ فتاة بعينها، فقط يصعدُ خلف أيّ منهنّ، ويُلقي بنطاله، ويدفسُ وجهه في الوسادات القذرة المُتسخة؛ حتى يشبع رغبته، ويعود لحُجرته؛ يُلقي ما تبقى منه فوق فِراشه.

اعتاد مُنذ طفولته أن يضمه صدر امرأة، ومع ذلك لم يُفكر أبدًا في الزواج، يخشى من أن يُنجب طفلًا؛ ويتركه وحيدًا يتيمًا، بعد أن تُمزقه إحدى السيارات كوالدِه الفقير.

في كل مُحاولاته للبحث عن «نعيمة» في عالم «إبراهيم الغربي» المُخيف، يعود خاوي الوفاض، وكأنه يبحثُ عن «إبرة في كوم قش».

كان عليه أن يذهبَ لتلك البيوت، رخيصة السعر، دنيئة المقام؛ ليبحث عنها كما أخبرته «عليّة»؛ فالفتيات المُصابات بالمرض لا يصلحن سوى للرعاع ومَعدومي القيمة والشأن.

كان يبدو غريبًا شاذًا وسط رواد تلك البيوت؛ حتى إنه كان بهيئته ووسامته وقامته الطويلة، وحُلته النظيفة يبدو أغرب من المعلم «إبراهيم الغربي» نفسه.

هذا الرجلُ النوبيُّ الأسمرُ البدينُ، الذي يرتدي ملابس النساء، ويجلسُ أحيانًا أمام بيته، ويده السمينة تملؤها الحُلي الذهبية.

اعتاد وضع منديله فوق أنفه وفمه؛ خوفًا من العدوى، وكلما زار تلك البيوت جلسَ في حضرة غانيته العليلة؛ يكتفي باستجوابها وسؤالها عن «نعيمة»، دون أن يلمسها، ولكنه على مدار أكثر من شهر من زياراته المُتقطعة غير المُنتظمة لم يصل لأي معلومة.

أوشك الصيفُ على نهايته، وجارته «أم هدى» تسأله ذات صباح عن رأيه بخصوص «هدى»، ابنتها الكبرى، التي وصلت لسن الإناث، وكما وصفتها أمُّها «دارت وادّوّرَت».

هل توافق على تزويجها من «بندق» ابن المعلم «صابر»، صاحب فرشة الخضار، أو تنتظر عريسًا أفضل منه؛ يستطيعُ إتمام زواجِه من فتاة بلا أب كابنتها، والتكفّل بكل مصاريف الزواج؟

يربتُ «ناجي» على كَتفها؛ وهو يدسُّ في يدها بضعة جُنيهات من مُدخراته، التي لا تعني له شيئًا على أي حال، ويَحُثُّها على الموافقة على العريس، والتعجيل بالزواج؛ فما زال أمامها ثلاث صغيرات أخريات، عليها وحدها رعايتهنّ وتزويجهنّ.

الأيام تمُر بلا هُوادة، وعدد كؤوس الكونياك يزداد يومًا بعد يوم، واليأس يتمكنُ منه كليًا؛ حتى إنه بالنهاية كفّ عن الذهاب لبيوت «الغربى».

لم يشغل باله يومًا بمَن سيقضي معها ليلته ببيت «سنية»؛ حتى تلك الليلة التى لَمَحَ بطرف عينه «علية»؛ وهي تُشير له من بعيد، وهي مُختبئة بأحد الأركان، ليطلب من البادرونة لأول مرة مُنذ فترة طويلة بأنه يريد «علية» في تلك الليلة.

وفي حُجرتها، وقبل أن تخلع جلبابها الفِضي اللامع المُتسخ، ألقت في وجهه خبر معرفتها مكان «نعيمة»:

– عرفتلك «نعيمة» فين.

– فين؟، انطقِي فين؟

– على مَهلك يا أفندي، أِني الحق عليّ إني دَعبستلك عليها.

– دسّ يده بعصبية شديدة في جَيبه، وأخرج كل ما فيه من مال، وألقاه بتوتر أمامها:

– اخلصِي، «نعيمة» فين؟

– في المستشفى.

– مستشفى؟، مستشفى إيه؟

– هو في غيرها بتاعة الغلابة إللي زينا يا حسرة علينا، «الحُوض» يا سِي الأفندي.

لم ينتظر سماع المزيد، وخرج مُهرولًا رغم كل كؤوس الخمر التي تناولها قبل مَجيئه، وألقى جسده في أول «حنطور» وهو يأمر العَربجيّ بحدّة ولهفة:

– مستشفى الحُوض يا أسطى.

مرّت الدقائقُ بطيئة ثقيلة، وهو يفركُ بيديه فوق ركبتيه؛ من فرط توتره وانفعاله، حتى إنه فكّر في أن ينزل من «الحنطور» عله يسبق هذا الحُصان البلدي العجوز.

لم يستغرق الأمرُ كثيرًا، حتى ينصاع مُطيعًا حارس المستشفى الذى أخبره بكل حسم أن وقت الزيارة فقط في الصباح من العاشرة صباحًا، وحتى الواحدة ظهرًا.

ظل جالسًا بملابسِه مُقرفصًا فوق فِراشه حتى الصباح، دون أن يهتم بإغلاق بابه، حتى إنه أفزع جارته السمينة «أم هدى» عندما حضرت لإيقاظه في الصباح، ورأته في وضعه هذا، كأنه تمثالٌ من الآبنوس فلم تستطع منع شهقتِها، وهي تبصقُ في صدرها:

- يا ساتر يارب.

امتلأت الأرضُ من حوله بأعقاب السجائر، حتى دقت الساعة الثامنة؛ ليهبَّ خارجًا بسرعة شديدة، حتى إنه ضرب «أم هدى» بكتفِه وأوقع طبق الغسيل من فوق رأسها، دون أن يهتم أو يلتفت، أو يُعلق على صراخها وكلامها الغاضب.

أمام المستشفى، وقف مُمْسكًا بقبضتيه الباب الحديديّ الضخم، حتى سمح له الحارس البغيض الملامح أخيرًا بالدخول.

لم يَحتَج لبذل مجهود للعثور عليها؛ فالمستشفي لا يوجد به غير ثلاثة أسِرّة فقط.

وقف أمامها مشدوهًا مفزوعًا، تتساقط من عينيه الدموعُ ساخنة غليظة سميكة رغمًا عنه؛ وهو يرى وجهها ذابلًا بشكل مُميت، حتى إن وجنتيها أصبحتا مجرد تجويف في وجهها شديد الصفرة، لتخلط في ذهنه الصورة أكثر من مرة، بين وجهها ووجه والدته قبل رحيلها بدقائق.

فتحت عينيها بصعوبة، وهي تستميتُ لتحريك جُفونها لأعلى، وتلتقي عينيه الزائغتين خلفَ دُموعِه.

ارتعشت شفتاها الزرقاوان وهي تبتسم، أو أن نُحولَ وجهها الشديد جعلها تبدو كذلك:

- سِي «ناجي».

تهاوى جسده بالكامل؛ فلم تعُد قدماه تستطيعان الصمود، ليخرّ على رُكبتيه بجوارها، ويَجهش بالبكاء والنّحيب، كأنه طفلٌ صغيرٌ فقد أمه في إحدى الأسواق المُزدحمة.

استطاعت بعد وقت ليس بقليل أن تُحرك ذراعها الذي يظهر عَظمُه بوضوح تحت جلده الأصفر اللون الشاحب، لتضع كفّها فوق وجهه:

- ما تبكيش يا سِي «ناجي» حقك عليّ يا أخويا.

أمسك بكفها يُلثمها بشفتيه، ويُبللها بدموعه التي تحركت في خُطوط مُتعرجة فوق تجويف يدها وذراعها:

- دوَّرت عليكِ كتير، دوَّرت في كل مكان.

- كنت خايفة أموت قبل ما أشوفك يا سي «ناجي».

- مِش ها تمُوتي يا «نعيمة»، ها تخِفّي وهتبقِي أحسن من الأول.

- كفاية عليَّ إني شُفتك.

- ما تخافيش يا «نعيمة»، مش هاسيبك تِضيعي مِنّي تاني.

قالها وهو ينهضُ ويضمّها لصدره، ودموعه تتساقط منه تغمر وجهها، حتى بللت شفتيها، لتحرك لسانها الثقيل ترشفها، وهي تبتسم وتثبت مُقلتيها.. تثبت للأبد.

ظلّ يصرخُ ويصرخُ كسَبْع جريح، وهو يضمُّها لصدرها بلَوعة مُطلقة، وحزن قاتل مُميت، حتى استطاع العاملون بالمستشفي إخراجه ونقل جُثمانها.

(٣)

أيامٌ طويلة لم يبرح فيها حُجرته، ولم يُشعل مصباحًا مُكتفيًا بالجلوس وحيدًا، شاردًا خلف المشربيّة ينظر للسماء، ويستجيب أحيانًا ليد «أم هدى»، ليتناول منها قطعًا صغيرة من الطعام، وهي تُرقيه، وتقرأ القرآن في أذنيه، وتطلبُ العون من أم الهاشم.

مَدَد يا أم هاشم، مَدَد يا أم العجايز.

للمرة الأولى يحضر لحُجرته أحد زملاء عمله، حيث فوجئ بـ«عويس» أفندي؛ يأتي لزيارته ليطمئن عليه، ويستفهم عن سبب غيابه، وأيضًا لينقل له تحذير رئيس المصلحة أنه سيتم فصله؛ إن لم يعُد للعمل.

لم يعرف أيُّ شخص ماذا حلّ بـ«ناجي» أفندي، حتى جارته العليمة ببواطن الأمور «أم هدى» لم تستطع تحديد حالته: هل هو محسُود أو «معمُول له عَمل»؟

تخلّص من ذقنه التي نمت على مدار عدة أيام، وقصّ شعر رأسه، وعاد لحياته منزوع الروح؛ ليُمارس كلَّ طقوسه القديمة، مع فارق بسيط أنه أصبح يمكثُ بالبار طوال الوقت، يحتسي الخمر المتنوع، ويستبدل

سيجارته العاديّة أحيانًا بسيجارة حشيش من جاره في الركن المُظلم، المعلم «فتوح».

ثلاثة أشهر كانت كفيلة بأن تلحَّ عليه غريزته لزيارة بيت «سنية»، وكيف لا؟، وهو من اعتاد مُعاشرة النساء كل ليلة.

أمام باب بيتها تجمّدت أطرافه، وهو يتذكر ملامح «نعيمة»؛ ليعود من حيث أتى؛ الغصة تسكن حلقه، والألمُ يعتصر قلبه، رغم كؤوس الخمر، وسيجارة المعلم «فتوح» المَحشيّة.

لم يمر وقتٌ طويلٌ قبل أن يجد الحل على يد المعلم «فتوح» أيضًا هذه المرة، وهو يصحبُه معه لبيت البادرونة «جمالات»، الذي كان أفضل حالًا من بيت «سنية»، وله رائحة جميلة لم يعتدها من قبل، حتى إنّ الفتيات ببيتها كانت أكثر جمالًا، والأهم لهنّ رائحة جميلة.

الليلة كانت تُعادل ثلاث ليال في سعرها، ولكن الفرق يستحقّ.

عادت البسمة تتسللُ لقلبه ببطء شديد، لكنها بالنهاية سكنت وجهه وقلبه، واعتاد بيت «جمالات»، لكنه أبدًا لم يحاول أن يُعلق نفسه بأيّ من فتياتها.

سيجارة الحشيش بصُحبة صديقه الجديد كانت تنقله لعالم جديد؛ ينسى فيه أحزانه، وتشعل ذكورته، وهو يستمع لنصائح صديقه المُخضرم:«المَرة ما تِتنِسِيش غير بمَرَة».

فقط طيف «نعيمة» الذي يزوره من وقت لآخر؛ ما كان يؤرقه ويبعث الشجن في قلبه.

عالمُه الجديد أكثرُ رحابة وأفضل حالًا من عالِمِه القديم، المعلم «فتوح» تاجر كبير، يتاجر في كل شيء حتى الحشيش.

كان الكثير من التجار يأتون له؛ لشراء «الصنف» أو لعقد صفقات، وكل ذلك لم يكُن يشغل بال «ناجي» أو يَعنِه في شيء.

حتى ذلك اليوم الذى احتدّ فيه النقاش بين «فتوح» وأحد زبائنه:

- بس إِنتَ كده بتخرب بيتى يا معلم «فتوح».

- إللي مش قد كارنا ما يمشيش فيه.

- يعني ده آخر كلام عندك يا معلم؟

- أنا كلامي أوله زي آخره وأعلى ما في خيلك اركبه.

نهضَ الزبون بشكل مُفاجئ وهو يخرج سكينًا من سترته ويصيحُ في وجه «فتوح»:

- لاااا، ما هو أنا مش هضيع لوحدي.

لم يشعر «ناجي» بنفسه وهو ينتفض من هول المفاجأة؛ ليقف مفزوعًا، والسكين يسكنُ في قلب المعلم «فتوح»، ويسقط بكل جسده بين ذراعي «ناجي»، بينما قاتله فَرّ واختفى تمامًا من المكان.

ثوان قليلة قبل أن يَعُمّ البار الهرج، وأحدهم يصيح:

- الأفندي قتل المعلم يا ناس.

لم يجد «ناجي» فرصة للشرح؛ أو الدفاع عن نفسه، فهو بالأساس لا يفهمُ ماذا حدث بدقة، ولماذا حدث؟

جُثة المعلم على الأرض وناجي مُلتصق بالحائط مُرتجف مفزوع، ما زال السكين بيده، والكل يلتفُّ من حوله؛ يحدّقون به ويرون ملامحه المُرتعبة في أبعد نقطة من الركن المُظلم حتى عبرهم «الشاويش» الضخم الجثة، صاحب الشارب المهول، وأمسك بياقة «ناجي»، وهو يدفعُه بعُنف أمَامَه.

جلس مُقرفصًا في إحدى جنبات «التخشيبة»؛ يرتعد من الخوف؛ حتى إنه لا يشعر بكل تلك الوجوه من حولِه.

«التخشيبة» تعجُ بالمساجين، وأغلبهم من أصحاب الياقات البيضاء والطرابيش.

لا يعرفُ كم مرّ من الوقت حتى بدأ يستعيد تركيزه، ويهبُّ واقفًا يتلفت حوله كالمجنُون، ويصيحُ في الجميع دون تمييز:

ـ ما قتلتوش.. ما قتلتوش.

كلُّ السجناء ينظرون نحوه بلا فَهم، وإن كانت بعض الوجوه حمَلت معالم التعاطف والشفقة.

اقتربَ منه أحدُ «الأفندية» وهو يربتُ على كتفه بمودّة:

- اِهدَى بس، وفهّمنا إيه حكايتك إنتَ كمان؟

دقائقُ من الصمت لا يتخللها سِوى صوت «ناجي» المُتقطع المُتلعثم، وهو يقصُّ عليهم ما حدث بانفعال، كما لو كانوا هم قضاة مُحاكمته ويُقسم إنه لم يفعلها، ولم يقتل المعلم «فتوح».

لم يظهر على أحد الانزعاج بشأنه، واكتفوا فقط بهز رؤوسهم، بعد انتهاء قصته؛ ليُعاودوا حديثهم بحماس شديد:

- مش مُمكن نتنازل أبدًا عن مطالبنا، أيوه، مفيش تنازل: الاستقلال التام أو الموت الزؤام.

يسقُط الاستعمار.. يسقط الاحتلال..عاشت مصرُ حُرة مستقلة.

دفن «ناجي» رأسَه بين ركبتيه، وهو يندبُ حظه، ويسخر من هُتافهم في قرارة نفسه.

فبماذا تفيده حُريّة مصر واستقلالها، إذا فقد هو حُريته؟.

عَلت الأصواتُ من حوله من جديد، ويشتد الحوار في جنبات «التخشيبة»:

- العُملاء الخونة، خدامين الإنجليز، مِش هايسمحولنا نِكمل مشوارنا.

الخونة باعوا بلدهم وأهلهم؛ علشان مصالحهم الشخصية، كلاب عساكر الإنجليز أخطر على مصر من الإنجليز نفسهم.

أراد «ناجي» أن يسدَّ أذنيه عن سماع مُهاتراتهم ونقاشهم؛ فهو أبدًا لم يَعنِه أمر الوطن يومًا ما بشيء. لم يهتم يومًا بتلك الأمور، أو حتى ناقشها مع نفسه، في أي وقت. نظرته للإنجليز كنظرته للمصريين، مُجرد أشباح بشر، تمُر من حوله، ويمر من حولهم، دون أي اكتراث أو اهتمام.

قطعَ تفكيره يدُ أحدهم، تدفعه في كتِفه:

- خُد يا أفندي عَفّر.

نظر في وجهه ليرى شابًا مُمتلئ الجسد بشكل كبير، له فَم صغير، لا يتناسبُ مع ضخامة وجهه، يجعله يبدو كطفل عملاق.

أخذ منه السيجارة، ودفن رأسه بين ركبتيه من جديد:

- ما تروّق كده يا أفندي.

- نظر له «ناجي» دون أن ينطق بكلمة أو يحمل وجهه أي رد.

- محسُوبك سعيد، سعيد البراني.

هز «ناجي» رأسه بلا مُبالاة، وهو يُحاول أن يرسم ابتسامة مُصطنعة على وجهه دون جدوى.

- مَتعَرفنَاش بالأفندي؟

- ناجي.

- عاشت الأسامي يا سِي ناجي، يا عم ماتِعملش في نفسك كده.

لم يَجد «ناجي» مَفرًا من حديث «سعيد»، فأشعل السيجارة بيده المُرتجفة، وهو ينظر بعيدًا في الفراغ تجاه باب «التخشيبة».

أشعلَ «سعيد» سيجارته وهو يمُد قدميه أمامه، ويسند بكُوعه على بَطنه المُمتلئ.

- تِعرف يا ناجي أفندي، أنا زي نُوبة حالاتك بالظبط.

- إنت كمان متهم بالقتل؟

-لا، حاجة أكبر بكتير.

- حاجة أكبر!، إزاى؟، هو فيه أكبر من القتل؟

- محسوبك مُتهم بِحَرق قطر.

- قطر!، قطر سكة حديد يعني؟

- هو بعينه.

- وإنت حرقت قطر إزاي ولِيه؟

- جرى إيه يا أفندي، إنت مش عايش في الدنيا ولا إيه؟

- لا يا سيدي مِش عايش، بقولك إيه سيبنى في حالي أنا مِش ناقص.

- حلمك شوية يا سِي ناجي، أنا هاحكيلك.

- بَقى أنا ياسيدي من البدرشين، وفي يوم مِنيل ماطلعتلوش شمس، وأنا راجع من الشغل في القطر، الأهالى هجمت على القطر وحرقوه، وقتلوا عساكر إنجليز.

- طب وإنتَ مالك؟

- ما أنا جاي لك في الكلام أهو، الدنيا هاجت، والخلق بقوا يجروا في كل حِتة، والسما اتملت دُخان، ومادريتش بحاجة غير وهُمّا بيقبضوا عليّ، ومِتهمِني إنّي أنا إللى حرقت القطر، وقتلت العساكر.

- اشمعنى إنت بالذات؟

- بِعيد عنك كُلهم جِريوا، وأنا فِضلت أدحرج في كرشي، بس معرفتش ومِسكوني أنا.

- إنتَ لوحدك؟

- آه وغلاوتك يا أفندي، شفت قلة بخت زي دي قبل كده؟!

- آه شفت، بَختي.

- إنتَ بلوتك هيّنة، لو مِسكوا القاتل زي ما حكيت هاتطلع منها، لكن أنا لِبستني التهمة من سَاسي لرَاسي.

- وماحاولتش تدافع عن نفسك؟

- يا أفندي دول إنجليز، ما سمعوش سعد باشا وفهمى باشا، هيسمعوني أنا؟

- وإنت على كده هايعملوا فيك إيه؟

- ودي مِحتاجة سؤال؟، هايعدموني.

- إيه؟، وإنت عادي كده مش فارقة معاك؟

- هعمل إيه بس يا أفندي، هو أنا بإيدي حاجة؟

- طب وأنا؟

- مخبّيش عليك يا سِي ناجي، القتل كله إعدام.

ارتعد «ناجي» وهبّ واقفًا وهو يصرخُ بهيستيريا:

- أنا ما قتلتش حَد... ما قتلتش حَد.

بصعوبة استطاع «سعيد» النهوض والإمساك به، وهو يُحاول تهدئته مع بعض الموجودين، واستطاعوا بعد وقت ليس بقصير في جعله يجلس من جديد، ويكفّ عن الصراخ:

- يا أفندي هَوّن على نفسك بلاش كده، ده إنتَ ماكمّلتش كام ساعة في الحبس؟ أومّال أنا أعمل إيه إللي بقالي شهر في الموال الأسود ده؟

- أنا ما قتلتش.. ما قتلتش؟

- مِصدقك يا أفندي، بُكرة في التحقيق احكي إللي حصل وادعي ربنا يمسكوا القاتل.

- بُكرة؟

- أيوه، ما كلنا مِترحّلين بُكرة على المديرية.

مرّت الساعات المُتبقية بَطيئة ثقيلة، لم يتخللها غير أصوات النقاشات في «التخشيبة» مصحُوبة بصوت شخير «سعيد» العالي، الذي ترك رأسه يسندُ على كتف «ناجي» ونام بكل هدوء، وكأنّ كل هذه الضوضاء لا تصل لرأسه.

في الصباح، كان عساكرُ القسم يدفعونَ المساجين بقوة، وهم يضربونهم بعصيانهم الغليظة حتى سيارة الترحيلات الكبيرة، وسعيد يُمسك بذراع «ناجي»؛ كأنه طفلٌ صغيرٌ يُمسك بيد والده.

بمُجرد أن وصلت العربة لساحة المُديرية، وفور خُروجهم من باب العربة الخلفي، تعالت الأصواتُ وانطلقت زجاجاتُ اللهب في كل مكان، واختلط صوت الثوار، عاشت مصر حُرة مستقلة، بصوت رصاصات بنادق العساكر ليجد «ناجي» نفسه يجري بلا فَهم أو قرار، وسعيد يُمسك ملابسه ويجري ببطء، وهو يصيحُ به باستعطاف شديد:

- ما تسِيبنيش يا ناجي أفندى.

على بُعد أمتار، كان أحدُ «العَربجية» يدفعُ بـ«ناجي» وخلفه «سعيد»؛ ليركبا معه الحنطور، ويفرّ بهما بعيدًا وهو يهتفُ بحماس شديد:

يسقط الاستعمار..

يسقط الاحتلال..

نظر «العربجي» لهما نظرة تفحُّص، وهو يراهما صامتين، ففطن «ناجي» لما يدور برأسه، ليضرب رفيقه السمين في جنبه المُمتلئ خُفية، وهو يصيحُ بقوة ورفيقه يتبعه بالهُتاف:

نموتُ نموتُ وتحيا مصر

عاشت مصرُ حُرة مُستقلة.

دقائق حتى أصبحا بعيدين عن نطاق المديرية، تركا الحنطور ويملؤهما الخوفُ، ولا يعرفان على وجه الدقة ما يتوجب عليهما فِعله:

- ها نعمل إيه دلوقتي يا ناجي أفندي؟

- مِش عارف، بس أكيد هانِهرب.

- هانِهرب نُروح فين؟

- مِش عارف.

- ودي حُوسة إيه دي يا ولاد؟

- يعني كنت عايز تِفضل محبُوس وتتعدم؟

- كفالله الشر يا ناجي أفندى، أنا خايف يمسِكونا تاني.

- علشان كده لازم نشوف مكان نِستِخبى فيه بسرعة.

تعالى نروح البلد عندنا.-

- يا عم إنت مجنون؟، إنت أكتر واحد هايقلبوا الدنيا عليه.

- طب والعَمل؟

- أول حاجة تعالى نُروح البيت عندي أجيب حاجتي وفلوسي وبعدها نِفكّر.

- وإنت مِش هايقلبوا الدنيا عليك إنت كمان؟

- أنا لِسه مَحدّش عارف عني حاجة، هو حَد لسه حقق معايا؟

هرش «سعيد» برأسه بشكل ينمُّ عن ذكاء طرأ عليه فجأة:

- ومفكّرتش إن مُمكن حد من تبع القتيل يكون مِتربصلك؟

- وهو إللي تبع القتيل يعرف منين إني هاهرب علشان يتربصلي؟

آه صحيح، عندك حَق.-

- طب يلا، بلاش نضيَّع وقت.

لم يكُن من السهل على «ناجي» تجنّب فضول جارته «أم هدى»، وهي تلحُّ عليه بالأسئلة فور رؤيته:

- كنت بايت فين يا سِي ناجي؟، وإيه يا أخويا إللي مِبهدِل هُدومك كده؟

لم يهتم كثيرًا بإرضاء فضولها أو إضاعة دقيقة واحدة معها في الحديث؛ ليدخلَ مُتعجلًا لغرفته يُلقي مرتبة السرير أرضًا، ويدسّ جُنيهاته في جيبه، ثم يجذب كل ما تطوله يده من ملابس في حقيبته القديمة، وسط أسئلة جارته التى لا تنقطع:

- يا أخويا إنتَ مالك، مِتلهوج كده ليه؟، ما ترد عليَّ يا راجل، هو إنتَ مِعزّل ولا إيه حِكايتك؟

انتهى من جمع أشيائه بقدر تركيزه، وخرجَ مُسرعًا ليتوقف فجأة عند أول درجات السّلم؛ كمَن تَذكرَ شيئًا مهمًا فجأة، ليعود مرة أخرى لأم هدى التى بالكاد وصلت لباب الحُجرة.

لم يَعرف بالضبط بماذا يُخبرها، واكتفى بأن أخرج نقوده من جَيبه، واقتطع منها جزءًا كبيرًا دسّها في يدها، وهو يُشير لها بإصبعه بقوة:

خُدي بالك من عيالك يا أم هدى.

لم تجد جارته ثانية واحدة لتعبر عن دهشتها، فقد اختفى من أمامِها في أقل من ثانية، ليشد ذراع «سعيد» المُنتظر أمامَ البيت، ويتحركا معًا بعُجالة، وهُما مرعُوبان؛ أن يقابلهما أحدُ أفرادِ الشُّرطة.

كانت الساعاتُ القادمة في وضح النهار هي الأشدُّ خطورة؛ قبل أن يأتي الليل، ويُشاركهما الظلامُ في حمايتِهما؛ حتى يُغادرا القاهرة تمامًا، ويبتعدا عن قلب الخُطورة.

كاد رأس «ناجي» ينفجر، وهو يُفكر في مكان مُؤقّت للاختباء، حتى أتى الليل ولم يجد مكانًا أكثر أمنًا من بيت البادرونة «سنية».

فبيتُ سنية هو الأقرب له، ولا يُمكن بأيّ حال من الأحوال أن يبحثَ عنهما البوليس في بيوت الدِّعارة.

كان الأمرُ بالغَ الصّعوبة عليه؛ ليشرح لرفيقه الجديد فكرته في التخفي المُؤقت:

- يا نهار زي بعضه يا ناجي أفندى، عايزنى أروح بِرجلي للنّجاسة؟

- يا سِيدي، ده مكان آمن جدًا، لَحِد ما الدنيا تِليّل، ونشوف هانهَبِّب إيه بعدها.

- ولو يا سِي الأفندى، أنا مِش وش الحاجات دي.

- خلاص براحتك، رُوح لحالك، وصرّف أمورك بنفسك.

- إيه بس يا سِي ناجي، إنت حِمَقِي كده ليه يا سيدي، أنا في عَرضك مفيش وقت للكلام ده؟

يا سي ناجي ما هو أنا... أنا.

إنت إيه انطق؟-

- أنا عُمرى ما رُوحت مَكان زَي ده.

- يا سيدي هو أنا واخدك أفسّحك؟، إحنا هانتنيل نِدّارى هناك لِحَد بالليل.

يعني هانقعُد بس؟-

- لأ طبعا، مِش عايزين حد يشُك فينا، هانعمل نفسنا رايحين ننبِسِط.

- يا سَنتك السُّودة يا سعيد.

- الله يخربيتك يا سعيد على بيت صُحبتك.

- طب على مَهلك عليَّ بس، هُما الجماعة دول عدم اللامُؤاخذة بيشتغلوا عِيني عينك كده بالنهار؟

- آه يا سيدى، نقول إيه بقى، ناس وسخة.

- طب وأنا هاعمل النّجاسة دي؟

- يا سيدي ما تِعملش، اقعُد معها؛ احكيلها حكاية القطر.

- إنت بِتِتمَألِت عليَّ يا سِي ناجي، الله يسامحك.

- بُص يابن الحلال، ده الحل إللي عندى، عايز تيجي معايا أهلًا وسهلًا، مِش عايز فارقني، وشُوف مصلحتك بنفسك.

- يا سِى ناجي أنا عُمري ما شُفت حُرمة قبل كده.

- مبروك يا سِيدي، أديك هاتشوف.

***

تهلل وجه «سنية»؛ وهي ترى زبونها الغائب مُنذ شهور؛ يعودُ من جديد، رغم حالته المُختلفة، مُفتقدًا تنمّقه ووجاهته القديمة:

يا أهلاً يا أهلاً بالحبايب.-

لم يكن عسيرًا عليه إيجاد حُجة لغيابه لفترة طويلة، ولم تكُن هي الأخرى بحاجة حقيقية لمعرفة السبب.

نظرت «سنية» نحو «سعيد»، وكأنّها لم تلحظ وجوده من قبل؛ لتتفحّصه من رأسه لقدمه:

- اللهم صلِّ على النبي، ومِين سِيدنا الأفندي الأبهة ده؟

قالتها وهي تشير مُبتسمة بيديها مُعبرة عن بدانة «سعيد» الواضحة، مما جعل «سعيد» يلوي شفتيه؛ مُعترضًا على سُخريتها.

- ده سعيد أفندي، صاحبى يا بادرونة.

- يا أهلاً يا أخويا بيك وبصاحبك.

- إحنا هانقضيها كلام ولا إيه يا بادرونة؟

- هِئ هِئ، لا يا أفندي ما تقلقش، طلبك أنا عرفاه إنما سِيدنا الأفندي....

- إيه يا بادرونة؟، ماله سعيد؟

- ما مالوش يا أخويا، بس ده مِحتاج حاجة خصوصي تتحمّل، وتشيل.

رغم قسوة الأحداث لم يستطع «ناجي» حجب ابتسامته عن وجهه على كلام «سنية»:

- كلك نظر بقى يا بادرونة.

قطع حديثهما قدوم «عليّة» التي فور رؤيتها «ناجي» تهلل وجهها، بفرحة عارمة:

- سِي ناجي!!، عاش مِن شافك.

- تِسلمى يا عليّة، كتر خِيرك.

نظرت «علية» لمعلمتها التى تختفي ملامحُها خلف دُخان الجُوزة، وهي تتحدث بميوعة:

- بعد إذنك يا معلمة.

تحرك «ناجي» خلفها، وهو يُشبعُ عينيه بمُؤخرتها المُستديرة، التي افتقدها لشهور، ونسى تمامًا أمر «سعيد»، الذي ظلّ واقفًا أمام المعلمة يتحاشي النظر إليها، والعرقُ يملأ وجهه وهي تتطلع له بتدقيق شديد:

- شكلك مِش على بعضك ليه يا أفندي؟

- لا أنا على بعضي أهو.

- لأ ما هو باين، هِيء هِيء.

- بت يا فتحية، إنتِ يابت.

- نَعمين يا معلمة.

تقدمت نحوهما «فتحية» السمراء المُمتلئة نوعًا ما، مُقارنةً بباقي «مقطوارت» البيت، وهي تتمايلُ في مِشيتها، وتنظر بوقاحة لسعيد الذي فتح فمه، وتزايد تساقط عرقه، كأنّه يضع رأسه تحت صنبور ماء.

- خُدي يا بت الأفندي وشُوفي طلباته.

هِئ هِئ، من عينيا يا سِتي.-

أمسكت «فتحية» يده تُجذبُه ولكنّه لم يتحرّك، وبدا كأنه تمثالٌ من الرخام، ورغم العرق الذى بلل ملابسه كانت أطرافه شديدة البرودة كأنها من الثلج:

- ما تيلا يا أخويا، مالك مِتنّح كده ليه؟

لم يجد «سعيد» بُدًا من إطاعتها؛ ليمشي خلفها تتشابك خُطواته؛ حتى كاد يسقط وهو يشعرُ بالأرض تتحرّكُ من تحته كأنّها من الأسفنج.

في غرفة «فتحية» وقف أمامها، وهي يراها تتمدّد فوق فِراشها المُتسخ القاتم اللون فاغرًا فَاه، مفتوح العينين، حتى اقتلعه صوتها شديد الأنوثة:

- ما تقلع يا أخويا، ولا أقلّعك أنا؟

قالت جُملتها لكل شيء في غرفتها، إلا «سعيد» الذي لم يسمع منها حرفًا واحدًا؛ كأنه فقد كلَّ حواسِه، فلم تجد مفرًا من أن تقوم وتدفعه بنفسها ليسقط بكلِّ جسده فوق فِراشها دفعة واحدة، وتقتربُ منه تباشر عملها بنفسِها.

(٤)

مرت ساعاتُ النّهار سريعة، وهُمَا في بيت «سنية»، حتى جاء الليل بظلامه وستره، لينطلق «ناجي» يجرّ خلفه «سعيد» حتى محطة القطار.

وقفا معًا يتطلعان في الوجوه حولهما، بحرص وخوف؛ لا يبدو علي أيّ منهما معرفة خُطة معينة للهروب، أو وجهة معروفة يَقصدانها:

- هو إحنا رايحين على فِين يا ناجي أفندى؟

- مِش عارف.

- أومّال جِينا هنا ليه؟

- ما هو لازم نِمشي من هنا ونروح أي مكان بعيد نِستِخبَّى فيه.

لم يكن يبدو على «سعيد» القدرة على اتخاذ أي قرار، أو حتى مُجرد التفكير، كان من هذا النوع الذي ينتظر الأوامر دائمًا والتوجيه، لا يُجيد رسم الخُطط، لكنه يُنفّذها بدقة شديدة بكلِّ رضا.

وعلى الرغم من ذلك، ظهرت لمعة الانتصار في عينيه، وتهلل وجهُه فجأة ونظر لرفيقِه بحماس بالغ:

- ما تِيجي نروح إسكندرية يا ناجي أفندي؟

- إسكندرية؟، اِشمِعنى؟

- هانروح عند عمّتي في «كامب شيزار».

- اِشمِعنى برضه؟

- إيه يا سِي ناجي أفندي مالك؟، مِش بتقول مكان نِدّارى فيه؟

- بس إسكندرية مَليانة إنجليز وعساكر؟

- خلاص براحتك، فكّر إنت، قال يعني في حِتة مفيهاش إنجليز؟

- أنا معرفش حَد خالص؟

جلس «سعيد» يُريح جسده الضخم، وهو يفركُ ذقنه، ويقطّب حاجبيه يدّعي التفكير العميق، بينما «ناجي» لا يكفّ عن التلفّت يمينًا ويسارًا؛ خوفًا من اقتراب أحد أفراد البوليس منهما، والتوترُ والقلقُ يملأنِ وجهِه.

بدأت الحركة تقِلّ في ساحة المحطة، وتزيد في المقابل مخاوف «ناجي» من اكتشافهما، فهو يُوقِن في قرارة نفسه أن الجميع لا يشغلهم سوى البحث عنه وتقديمه للعدالة:

- إنت مُتأكّد إن عمّتك هاتعرف تساعدنا؟

- عمّتي غلبانة وعلى نيّاتها، بس جُوزها إسكندراني جدع، وهاينفِد في الحديد؟

- طب قوم بينا، بَلاش نضيّع وقت.

جذبه «ناجي» من ذِراعه، واندفعا نحو رصيف قطار الإسكندريّة، الذي أوشك على التحرّك، ودلفا معًا في إحد العربات، التي لم تكن مُزدحِمة بشكل واضح.

جلس «ناجي» يتأمّلُ رفيقه، للمرة الأولى، بهدوء وتفحُّص بعد أن تحرك القطار مُغادرًا المحطة، ويشعر مع حركته بهدوء مُؤقت.

«سعيد» له وجهٌ شديدُ البراءة، يصنعُ مع جسده الضخم المُتلئ تباينًا واضحًا يجعلُ من يراه يألفه من اللحظة الأولى، ويشعُر بالود تجاهه:

- بس إنت ما قلتليش يا سعيد، إنت بتشتغل إيه؟

- أنا ماسك مصالح الناحية كلها.

- مصالح إيه، ومَاسكها إزاي يعني؟

- أنا هفهّمك يا ناجي أفندي،

بَقى إحنا عندنا الفلاحين مايحبّوش ينزلوا مصر؛ فأغلبهم ما بيفُكش الخط، والعبد لله هو اللى بيخلّص مصالحهم، من بيع وشرا، والذي مِنه.

- يعنى إنتَ يوم الحادثة كنت نازل تِخلص شغل؟

- كنت نازل أسلم مواشي في الوراق، وبعت البهايم وحَصَل إللي حَصَل وأنا راجع.

- إيه ده؟، يعني فلوس الناس راحت منك؟

ابتسم «سعيد» بشكل طفوليّ واضح، وهو يتلفتُ حوله بحرص مُصطنع، ويقتربُ برأسه من «ناجي» وهو يتحدثُ بصوت خفيض يُشبه الفحيح مُدعيًا الخبث والحَيطة:

- الفلوس معايا، شَايلها لامُؤاخذة في دِكّة اللباس مَحدّش خد باله منها.

ضحك «ناجي» بقوة وصوت مُرتفع؛ حتى إنه لفت نظر ركاب العربة، وجعل «سعيد» يقطّب حاجبيه غاضبًا لردِّ فِعلِه:

- بتضحك على إيه يا ناجي أفندى؟

- لأ، ولا حاجة.

- كل الضحك ده، وولا حَاجة؟

- بصراحة يا سعيد، إنت لِباسك كبير ويشيل بَنك بحاله.

- ماشي يا سِي ناجي، اتريق براحتك.

انتبه «ناجي» فجأة، واختفت ابتسامته، ونظر في عين «سعيد» بقوة:

- سعيد، إنتَ اطمنت على الفلوس بعد ما خرجنا من عند سنية؟

- من غير ما أطمن، الفلوس في نُص دِكة اللباس بالظبط، طول ما أنا ماشي بتغُزني في بطني، مِش محِتاجة فَكاكة.

قالها، وهو يُشير بإصبعه تجاه رأسه مزهوًا بنفسه، بينما «ناجي» يرمُقه بنظرة حادة حائرة:

- إيه ده؟، هو إنت ما قلعتش اللباس وإنت هناك؟

- انفعل «سعيد» بشدة، وهبّ واقفًا بشكل فُجائي؛ حتى إن رأسه اصطدم بحامل الأمتعة:

- عِيب يا ناجي أفندي، الكلام ده أومَّال، وأنا كنت هاقلع اللباس ليه يعني؟

– نظر له «ناجي» بأعين مفتوحة محدقة، وفم مفتوح بشدة، ثم انفجرّ ضاحكًا مَرّة أخرى بقوة، أكبر من المَرة الأولى، حتى إن «سعيد» ظل يضربه في رُكبته، ليكفّ عن ضحِكِه.

وعلى الرغم من كل ما يمُر به «ناجي» من أحداث تفوق تخيُّله، وتحول حياته الهادئة بالكلية لحياة صاخبة مُرعبة لشخص مُطارد هارب، فإن وجود رفيقه الجديد هوّن عليه كثيرًا إحساسه بالوَحشة والخَوف.

لم يَعتد من قبل على مُصاحبة أحد ومُجالسته، حتى في جلساته مع المعلم «فتوح» كان يجلسُ بجواره غير مُدرك أغلب الأمور، وغير مُنصت له بالمَرّة.

ملامحُ رفيقِه الطفوليّة نزعت منه نفوره الداخلي من الآخرين، وصنعت مساحة كبيرة له داخل نفسه،

استند برأسه فوق معصمِه، وهو يتابعُ الظلام خارج نافذة القطار، وتزاحمت كلُّ المشاهد بداخل رأسه، مُختلطة بعشوائيّة كبيرة:

لماذا قرر الهروبَ هكذا من اللحظة الأولى؟، ألم يكن من الأفضل ألا يهرب ويعمل على تبرئة نفسه من الجريمة؟، ليس له صحيفة سوابق، أو أي سجل إجرامي سابق يُدينه، ويؤكد ارتكابه الجريمة.

لكنّ الجميع رأوه؛ وهو يُمسك السكين المُلطخ بالدماء، وجُثة المعلم بين يديه، لم يرَ أحد القاتل الحقيقي.

لم تُسمع أيُّ ضجة لمُشاجرة، قبل أن يسكن السكين قلب المعلم.

الدولة مشغولة بسعد باشا والثورة وإرضاء الإنجليز،

لن يتركه أحد يبحثُ عن براءته، أو حتى يهتم لأمره.

نعم، هو كذلك، لم يهتم أحدٌ لأمر «نعيمة» الفقيرة، حتى ماتت بائِسة مُعدمة.

لم تبحثُ عنه الحكومة وهو يتيم صغير، لا يجد الخبز الحاف ليالي طوال، هو وأمُّه الحزينة، إنهم فقط يبحثون عن المُخطئينَ؛ لمُعاقبتِهم.

لا يُمكنه أن يثقَ بهم، وأن يعتقد أن أيًا منهم سيبحثُ عن قاتل المعلم، ليُخرجه من زنزانته.. نعم، لقد اختار له القدر القرار الصواب.

لم ينتم يومًا لشيء أو يُؤمنُ بأحد، لا يعنيه من يحكُم، الملك أم الإنجليز أو حتى سعد باشا؟، حتى عمله لم يكُن يهتم به أو يشغل أيّ حيز من تفكيره.

كل ما كان يشغله أن تمر ساعات العمل ويأخذ راتبه في نهاية الشهر.

لا يرغبُ في شيء مُحدد، ولا ينتظر أمرًا واضحًا، تكفيه كؤوس الخمر، وأفخاذ النساء؛ ليشعُر بالرضا التام ويعود لحُجرته؛ ينام هادئ النفس، قرير العَين.

خطأ واحد ارتكبه عندما تعلّق بـ«نعيمة»، وسمح لقلبه أن يُحبها ويبكي لرحيلها بالنهاية.. يا له من أحمق مُندفع!؛ لا يُعطي لنفسِه فرصة للتروّي والتفكير.

كيف لم يُخبر «أم هدى» بأنه لن يعود مرة أخرى؛ لتستطيع بيع مُتعلقاتِه والاستفادة من ثمنِها.

الآن سيؤول كلُّ شيء لصاحب البيت؛ ولن تستفيد جارته بشيء، انتزعه من تفكيره قبل أن ينفجر رأسُه صوتُ رفيقه وهو يصيحُ:

- عم يا بتاع السّميط، وكأنه تذكر فجأة أنه لم يأكل مُنذ وقت طويل، قبل أن يشتري «سعيد» عددًا لا بأس به من السميط والمِلح، ويأكلانِ بنهم واضح:

- هُمّا ما حققوش معاك يا سعيد؟

- يحققوا إيه يا أفندي، ما هُم عارفين أكتر منّي إني ما عملتش حاجة.

- يعنى إيه؟، أومّال مِسكُوك ليه؟

- مِسكُونى، الله ينوّر عليك.

- مِش فاهم برضه.

- هُما يا أفندي مِسكُونى وأي حَد مِسكوه شَيّلُوه الحادثة، تِصدّق بالله.

- لا إله إلا الله.

- أنا دخلت على البيه الظابط، وعَيّطت له زَي العِيال، وحلفت مِية يمين إني ما عملتش حاجة، ومع ذلك كَش فِيَّ، وقالي: اخرس يا راجل إنتَ بلاش إزعاج؟

- وعملت إيه؟

- هَه.. يعنى هاعمل إيه؟!، سمعت الكلام وخرست.

ضحِك الاثنان بقوة، حتى إنّ بقايا السميط تطايرت من فم «سعيد» في كل مكان.

وصل القطار محطته الأخيرة بالإسكندرية، بعد مُنتصف الليل بقليل، وخرجا معًا، يتلفتان حولهما لتجنّب المرور من أمام أحد رجال الشرطة؛ حتى وصلا إلى أحد الشوارع الجانبية، بعيدًا عن صخب المحطة:

- هو إحنا بنعمل كده ليه يا ناجي أفندي؟، هو في حد عارفنا هنا كمان؟!

رغم طيبة «سعيد» الشديدة التي تصل لحد السّذاجة، فإن سؤاله كان منطقيًّا جدًّا، لدرجة جعلت «ناجي» يتوقف، ويُحدّق في وجهه، وهو قاطِبٌ حاجبيه:

- تصدّق عندك حق، ما أظنش إننا مُهمّين قوي، لدرجة إنهم قالبين البلد علشان يدوروا علينا.

- يا ناجي أفندى هُما مشغولين مع الثوار.

- طب خُد بالك يا فالح، عشان إنتَ محسُوب منهم.

شخصَ «سعيد» ببصره فاتحًا فمَه؛ كأنّه تفاجأ بما سمع:

- تصدّق عندك حق، يادِي الحُوسة.

- يا سيدي لا حُوسة ولا حاجة، إحنا على كل حال ناخد بالنا على قد ما نِقدر.

- عندك حق برضه.

- طب يلا بقى، شُوف عمّتك دي هانروح لها إزاي؟

- لأ، عمتي إيه دلوقتي في نُص الليل.

ألقى «ناجي» حقيبته أرضًا، وهو يصيحُ مصدومًا:

- نعم، أومّال هانروح فين؟

- على مَهلك عليّ يا سي ناجي، إحنا هانروح لجُوز عمتي الأول؟

- وفين جُوز عمتك ده يا سِيدي هو كمان؟

- هنا قريب؛ ما تقلقش، شغّال في بار الخواجة «خرالامبو».

لَمعت عينُ «ناجي»؛ فور سماعه كلمة «بار»، وتهللت أساريره بشدة؛ ليدفع رفيقه في أول حنطور مَر بجوارهما في طريقهما للبار.

لم يكُن البار مُزدحمًا كَبَارات القاهرة، ولكنه أكثر جمالًا ونظامًا بشكل ملحُوظ، إنه على أي حال يختلفُ عن البارات التى اعتادها «ناجي»، فهُنا

تجلسُ النساء مع الرجال حول المنضدات ذات الغطاء الأبيض، وزهرية الورود.

هرولَ «سعيد» نحو النادل الأسمر العجوز الشديد النّحافة، والقصير بشكل ملحُوظ، وارتمي بين ذراعيه بشكل طفوليّ، فبدا المشهدُ عبثيًا لأقصى درجة.

أشار «سعيد» نحو «ناجي» وهو يتحدث بفرحة قبل أن يقترب منهما، ويمد يده للرجل الذى لم يكُن سوى «منعم» زوج عمة سعيد.

رحّب بهما العجُوز البشوش، وأجلسهما في أحد الأركان، وقدم لهما الطعام الذي انقضّ عليه «سعيد» بشراهة، وكأنه لم يتناول نصف حمولة بائع السميط مُنذ قليل.

تتابعت الكؤوس بين شَفتي «ناجي»، بينما «سعيد» يفترشُ ذراعيه فوق المنضدة، ويختفي صوتُ شخيره بصوت الموسيقى المرتفع.

بدا «ناجي» سعيدًا مُنتشيًا، وهو يتابعُ فقرات البار المُتنوعة لراقصات من ذواتِ البشرة الحمراء، والشعر الأصفر، وكأنّه نَسي تمامًا أنهما مُجرمان هاربان.

بعد الفجر بقليل، خرجوا جميعُهُم لبيت العَمّة بـ«كامب شيزار»، والعجوز الطيب يرحب بهما كل دقيقة.

استقبلتهما العمّة التي كانت تشبه ابن أخيها لحد التطابق بفرحة شديدة، وهي تحتضنُ «سعيد»، وتربتُ على ظهره، كأنها تطمئن أنه لم يخسر جرامًا واحدًا من وزنه.

لم يظهر على ملامحِها أي انفعال واضح تجاه «ناجي»؛ مُكتفية فقط بالترحيب به؛ بعد أن عرَّفه «سعيد» بأنه صديقه.

وعلى الرغم من شُقة العمّة الصغيرة، فإن وجود الضيفين لم يكن يُسبب أيّ إزعاج لزوجين في آخر العمر، وحيدين رحل عنهما الأبناءُ في طرقات الدنيا؛ بحثًا عن الرزق.

لم يستغرق الأمرُ دقيقتين حتى غرق الاثنان في سُبات عميق، فوق «كنب» الغرفة.

في المساء، أيقظهما العجوز الطيب بمودة شديدة؛ ليتناولا السمك المشوي، ذا الرائحة النفاذة، و«سعيد» يجلسُ بجوار عمّته بفرحة، وهي تفصِّصُ له قطع السمك بيديها.

جلسَ «منعم» معهما في شرفته الصغيرة، يستمعُ لهما بتركيز شديد، وهما يقصَّان عليه كلَّ شيء بالتفصيل.

كان من الواضح عليه تأثره بحظهما السيئ؛ الذي دفع كلًا منهما لهذا المصير.

جلس العجوز صامتًا لفترة، بعد أن انتهيا من رواية قصتِهما، قبل أن يهز رأسه بتدبر، ويخبرهما بأن كل ما عليهما فِعله هو الاختفاء بعض الوقت.

الأمور لا تجري على وتيرة واحدة في دولة بها ثوار وعساكر غاضبة خائفة، وأنه من المؤكد بعد مرور بعض الوقت سينتهي كل شيء.

بدا له الأمر بسيطًا، وبخبرته الكبيرة في الحياة لا يحتاج سِوى ترك الماضي خلفهما، والبدء في حياة جديدة مع أشخاص لا يعرفونهما، خاصة «ناجي» الذي من الأرجح الآن أن يبحث عنه أهل المعلم «فتوح»؛ للثأر منه:

- طب ما أرجع أستخبى في بلدنا يا جُوز عمتي.

- ماينفعش يا سعيد يابنى، الإنجليز ليهم في كل شبر دَلدُول يبلغهم عن الجدعان إللي زيك؟

- طب والعمل يا جُوز عمتي؟

- العمل عمل ربنا، خليكوا هنا لحد ما الأمور تتغير.

تدخّل «ناجي» في الحوار بعد أن اقتنع بكلام العجوز بشكل كبير:

- بس هنا برضه يا عم منعم مش أمان قوي، والإنجليز والبوليس في كل مكان.

أومَأ العجوز برأسه، وحدّق بعيدًا وهو يلوي شَفتيه، ويُفكّر بتمعُّن رغم ولولة «سعيد»، وكلامه المُبهم غير المفهوم:

- بُصوا يا ولاد، أحسن حَل تُروحوا مكان بعيد عن كل ده؟

- مكان زي إيه يا عم مِنعم؟

- مكان لا فيه شاويش بيطوّق الشوارع طول الليل، ولا عساكر إنجليز بتسهر في بارات.

تبادل «ناجي» النظرات الحائرة مع «سعيد»:

- أيوه إللي هو فين يعني؟

- مفيش غير مكان واحد، عند الشيخ «راضي».

زادت نظرات الحَيرة المُتبادلة بين ناجي وسعيد، وهما يتطلعان لوجه العجوز:

- مِين الشيخ راضي، وفين المكان ده؟

- ده صديق عُمري، راجل طيب، وعايش في حاله من بعد مُوت مراته، ساب إسكندرية وخَد بنته معاه وراح «مطروح»، عاش هناك يربي غنم ويزرع تين.

- يعنى هانروح مطروح؟

- هاتروحوا للشيخ راضي في «بير سكران».

(٥)

عشرات الأسئلة جالت بذهن «ناجي» حول وجهتِهما الجديدة، وعن الرجُل الذي سيعيشان في حمايتِه في مكان بعيد لا يعرف به الكثيرون.

كان ناجي يخشي من «بير سكران» أكثر من خشيته وحشة الزنازين.

لم يُخفِ العجوزُ الطيبُ شيئًا عنهما، وقصّ عليهما كل ما يعرفه عن صديق عُمره المُهاجر بعيدًا عن صخب الحياة.

الشيخ «راضي» كما يُسمُّونه في وطنه الجديد ارتحل إلى هناك مُنذ خمسةَ عشرَ عامًا؛ بعد أن رحلت زوجته في ريعان شبابها، بعد أن أصابها مرضٌ خبيثٌ، أكل جسدها وصحتها، وصرعها بالنهاية وتركت خلفها ابنتهما الوحيدة «هند» ذات الخمسة أعوام.

كان «راضي» رجلًا ناضجًا، لا يحملُ للدنيا همًّا، أو تُعادل في نظره أكثر من زجاجة «بيرة» فارغة، يُلقيها في «المالح» بعد أن تجرّعها، وهو مُمددٌ فوق الرمال.

كان صديقًا للجميع، ولكن لم يكن له صديق سِوى «منعم» رفيق طفولته ورحلة عمره.

كان يعملُ بالميناء، ولا يَمُر عليه شهر دون فتاة جديدة، تتأبّط ذِراعه من جميلات اليونان أو جورجيا خفيفات الظل.

عابثٌ هائمٌ على وجهه، يعيشُ حياته بطولها وعرضها، وهو يضحكُ ويرقصُ، لم يفعل مثل صديقه ويتزوج ويُنجب ويحيا حياة البائسين الكادحين المُناضلين من أجل قطعة خبز لأطفالهم.

كان يحبُّ الحياة، ويرفضُ ويمقت القيود، شخص عدو للنمطيّة، ومُحارب صلد ضد الاعتيادي والمألوف.

عاش هكذا لا تُفارق الابتسامة ملامحَه، ولم يكُفُّ المرح عن مُصاحبته، حتى ذلك اليوم، وكان قد تخطى الأربعين من عمره عندما شاهد تلك الفتاة التى كاد يسقط فوق رأسها صُندوقُ البضائع الضخم؛ ليقفز من سُباته كالأبطال الأسطوريين، ويُلقي كل جسده عليها يدفعها بعيدًا قبل سقوط الصندوق بلحظة واحدة.

على أرض الميناء الرطبة، التقى نظرُه بها لأول مرة، وهي ترتعدُ مفزوعة، لا تعرفُ ماذا حدث؟،

فقط تُحملِقُ في وجهه، وهي ترتجفُ من هول الموقف.

نظرة واحدة من عينيها كانت بمثابة الإعصار العاتي؛ الذي حطّم كل حُصونه دفعة واحدة، وكأنّه لم يُناضل ساعة واحدة ضد الزواج وضد القيود.

لثوان كان قد غرق حتى رأسه في سِحر عينيها؛ حتى إنه لم يعُد يسمع صخب الميناء، ولا تلك الضجة والصيحات الحَامدة لإنقاذ الفتاة.

الجميعُ من حولِهم يَحمدُون العناية الإلهية، ويغمرونه بالثناء على شجاعته وسرعة تصرّفه، لكنه لا يَعي شيئًا من حوله، ولا يسمع سِوى دقات قلبه التي تسارعت واضطربت دون إرادته.

سُخريّة الحياة الأبديّة ممّن يظنون أنفسهم أقوى منها ومن قوانينها.

«راضي» العابثُ الضاربُ بكلِّ شيء عُرض الحائط ينهار في لحظة، دون أي سبب منطقي سِوى أن الدنيا تريد السخرية منه، ومن ادعائه المستمر أنه لا يوجد ما يُسمى عِشقًا، وأن النساء مِثل سفن الميناء، مهما مكثت لا بد لها أن ترحل يومًا ما، وتحِل أخرى محلها.

الرجلُ الذى لم يكُفّ يومًا عن مُرافقة الجميلات، يسقط صريعًا أمام فتاة صغيرة ذات ملامح بريئة، لا يُميِّزها شيء، غير أن لها أعينًا سقط في أعماقِها دون أي مقاومة.

مَن كان يُصدّق قبل هذا اليوم أن «راضي» زير النساء يحملُ أكياس الفاكهة، ويمشط شعره الثائر، ويجلسُ في مجلس عائلة يتحدث في أمور الزواج والمَهر، وكأنه شخصٌ آخر لم يقضِ حياته بأكملها يسخرُ من كل هذا آلاف المرات.

أصبح زوجًا وفيًّا في ليلة وضُحاها، وأكثر ولاءً لبيته وأسرته من صديقه «منعم» الذي طالما سَخِر منه، وتفاخر أمامه بمن يعرفهنّ من نساء.

اعتاد حياة القيود وعشقها، واعتنقَ مذهب حياته الجديدة، حتى إنه أصبح يسيرُ فرحًا مُنتشيًا على شاطئ الكورنيش، لا تتأبّط ذِراعه شقراء يونانية، بل يحملُ صغيرته الشقيّة فوق كَتِفِه، تضحكُ من قلبها لمُداعبته كأب طيب عطوف.

لكنّها سُخريّة الحياة مرة أخرى، والتي تبدو أنّها قد تفرّغت للعبث معه ومع فؤاده كيفما تشاء،

الزوجة الطيبة حبيبته المُخلصة العاشقة يُصيبها المرضُ ويتمكّن منها؛ لتذبل أمامَ عينيه يومًا بعد يوم، ويخفُت نور عينيها الذى طالما افتُتن به، وحملق فيه بالساعات ليصرعها المرض بكل قسوّة في أيام، ويتحطّم فؤاده، ويدمي قلبه لفراقها إلى الأبد.

بُهتت ملامحُه، وانحنى ظهره حُزنًا وكَمدًا، ولم يستطع العيشَ في المكان نفسه الذي يشمّ في كل قطعة فيه رائحتها، وتُحاصره في كل مكان ذِكراها.

رحلَ الرجلُ الحزينُ يحملُ ابنته فوق ذراعيه إلى مكان بعيد، يندر فيه وجود البشر، لعلّ وحدته تنسيه عذابات نفسِه وجرحه الجاثم فوق صدره.

شعر «ناجي» بالعطف نحو الرجل؛ الذي رأى في قصته وجه والدته الفقيرة المُعدمة، و«نعيمة» التي قست عليها الحياة، وكأنها لم تبغض شخصًا مثلها.

صفعاتُ الزمن على وجوهنا مُتعددة متنوعة، لكننا بشكل أو بآخر ننجذبُ ونتعاطف مع مَن تُشبه مُعاناته مُعاناتنا، نشعرُ بصحُبتهم بالوَنس، وكأننا نربتُ على قلوبنا بوجودهم، وأن غيرنا قد ذاق الألم نفسه، وتجرّع العذاب ذاته.

لم يكُن الوصولُ للشيخ «راضي» سهلًا يسيرًا، كما ظنّ «ناجي» ورفيقه الطيب، كان الاتصال بين راضي ومِنعم يتم دائمًا من خلال «بشارة»، التاجر الذي يشتري الماعز والماشية والتين والزيتون، من أهل

«مطروح»، ويعرف «راضي» جيدًا منذ أن كان يعمل بالميناء ويسهل له أعماله ونقل بضائعه.

مرت ثلاثُ ليال، وسعيد يجلس بجوار عمّته، تُطعمه بيدها، وتدلك له فروة رأسه، وهو مُمدّد بجوارها، كطفل صغير مُدلل، بينما «ناجي» يجلس في شرفة البيت طوال الوقت؛ ينظر إلى البحر، ويتابع ارتطام الموج بالشاطئ، وكأنّه ينتظر مع كل مد أن تتخطى الموجة الشاطئ، وتتمرّد ولا تعود، ولكنها بعد كل قوتها، وحماسها تستكين وتضعف وتعود مُستسلمة.

لم يعُد كسابق عهده؛ يتحكمُ برأسه وبماذا يُفكر؛ بل ترك الأمر لعقله؛ كما تركت الأمواج مصيرها بيد المَد والجزر؟

تتداخلُ الأفكارُ والمشاهدُ برأسه، فيطلُّ عليه وجه والدته المُتعبة، وهي تحتضنُ رأسه، وتُحذره من الدنيا وغدرها.

كانت طيّبة أكثر مما يجبُ، وشديدة الخوف أكثر ممّا رأت، وعظيمة العطاء أكثر من أن يَحلّ محلها شخصٌ آخر، كان مُعلقًا بها ليس كابن وأم فقط، ولكن الأهم كاثنين، اختبأ كل منهما من العالم خلف باب حُجرتهما المُظلمة الرطبة الضيّقة،

تعلم منها الانزواء والاكتفاء بنفسه وبها عن الدنيا، وكأنّ كل ما هو خارج جدران حُجرتها وَحشٌ مُخيفٌ قد يفتك به، ويَفترسه في أي وقت، دون رحمة أو تحذير.

خالفَ نصائحها مرة واحدة؛ عندما ترك قلبَه يتعلقُ بـ«نعيمة»، وهو يعلم في قرارة نفسه أنه ليس من هذا النوع الذى يُمكنه اتخاذ القرار، وحسم الأمور والحصول على ما يُريد بشجاعة وإصرار.

«نعيمة» تُشبه والدته في ضعفها واحتياجها، وأم هدى تشبه والدته في فزعِها الدائم، من غدر الدنيا وضيق ذات اليد.

لم يَعتد من قبل الاختلاط المُكثف بالرجال، والبوح لهم بما يَجيشُ بنفسه. تطمئنُ روحُه وهو بين ذِراعي امرأة، أي امرأة، حتى وإن كانت غانية تبيع جسدَها.

هذه المَرّة الأولى له في مُرافقة رجل مثله، لا يُمكنه النومُ على قدميه، أو البُكاء في صدره، لكنه يشعرُ وسط كل هذا براحة ما رغم كل شيء، ورغم حياته التي تبدّلت بالكُليّة في ليلة وضُحاها.

كان يتمنّى في أعماق أعماق نفسه أن يترك كلَّ شيء ويرحل، إلى أين؟، لا يهمّ.. فقط كان يُريد الرحيل، السفر، الابتعاد عن كلِّ شيء.

كان يُمكنه الاستسلام لمصيره، والبحث عن مَخرج من جريمة لم يرتكبها، ولم ينتبه حتى لها وهي تحدثُ على بُعد سنتيمترات منه، لكنّها الرغبة التى تسكنُ روحَه، وتصاحبُ أحلامَه كل ليلة، وهو يرى نفسه شخصًا آخر يمتطي جوادًا بلا سرج، ويجري بكل قوّة لا يلوي على شيء.

«راضي» يقبعُ في رأسِه بشكل مُستمر، وهو يتذكر «نعيمة» الراحلة، وكأنها زوجة الرجل البائس الذي أرته الدنيا السعادة بألوانها الزاهيّة، ثم أدارت له ظهرها؛ ليسقط خلفها مكلومًا مقهورًا، لا يندم على شيء أكثر من أنها ابتسمت له ذاتَ يومٍ.

الكل لا بد له من ألم، وكأنّ قانون الحياة الوحيد الثابت أن توزع الحُزنَ على الجميع بكل عدل ومُساواة.

«منعم» يرسلُ لهما ليلًا لمُقابلتها في البار، ويُعرّفهما على المعلم «بشارة» ذي البشرة الخمريّة، والشارب الرفيع، الذي يرتدي قميصًا، وبِنطالًا من القماش به حمالة تنحرفُ يمينًا ويسارًا، بسبب ضخامة بطنه، وقبعة كأنه إيطاليّ، أبًا عن جَد. ورغم أن هذا هو الزّي المُفضّل لـ«ناجي»، فإنّه كان يبدو أكثر تأنقًا من المعلم واسع الثراء مُقارنة به.

«ناجي» ممشوقُ القوام مُعتدلُ الجسد، شاربه ليس بالكثيف، أو الرفيع لكنه يُزيده وسامة، مع ذقنه الحليقة باستمرار.

زفّ لهما «بشارة» المُبتسم دائمًا بُشرى مُقابلته الشيخ «راضي»، وأنه رحبّ بهما كثيرًا، خاصة أنه يُفكر منذ فترة كبيرة فيمن يُساعده، بأعماله بعد أن أنهكته الشيخوخة.

كانت ليلة فارقة لناجي وسعيد؛ بعد أيام من العُزلة في بيت العَمّة؛ خاصة بصحبة المعلم «بشارة» الذي لا يَكُفُّ لحظة عن الضحك، وإلقاء النّكات القبيحة.

السَّفرُ سيكونُ بَعد عشرة أيام مع المعلم شخصيًا، وفي عربتِه الكبيرة لنقل البضائع.

قبل أن يُغادر المعلم الذي أفرط في الشراب حتى إنه بدا مُترنحًا عند وقوفه، اقتربَ من «منعم»، وأخرج مِن جيبه ورقة مطويّة، وضعها بيد «منعم» وهو يُقهقه بصوت مُرتفع:

صاحبك باعتلك الجواب ده، شَكله جواب غَرامي ولا إيه؟

انفجر الجميعُ في الضحك لدُعابته للرجل العجوز الذي طوى الورقة ودسّها بملابسه..

تمدّد «ناجي» فوق الكنبة، تحت النافذة، وهو يضمّ كفيّه تحت رأسه، وينظر للسماء، والتى تُفرج ببطء عن أشعة شمس الصباح، والأفكار تُعاود الصراع داخل عقله.

لا يعرفُ بالضبط تحديد مشاعره، فهي مُتابينة مُتضاربة، بين شعوره بالخوف من رحيله لمكان بعيد غير مألوف له؛ لا يعرف عنه شيئًا، ولم يتوقع يومًا في حياته أن يعيش فيه، وبين رغبته وفضوله في مُقابلة الشيخ «راضي».

لم يَستطع تحديد مشاعره بدقة، خاصة مع صوت شخير «سعيد» المُمدّد على الكنبة المجاورة، الذي يُصدر أصواتًا غير مُتوقعة مُتقطعة، وكأنه يُصارع ثورًا هائجًا وهو نائم،

لم يكن «ناجي» هو الوحيد المُشتت التفكير حينها.

«منعم» أيضًا اختلطت برأسه الأفكار بعد أن قرأ خِطابَ صديقه، وقطّب حاجبيه متأثرًا بشكل كبير، حتى إنّ دمعة طلّت من عينيه، دون أن ترحمه وتسقط.

لمدة عشرة أيام تالية، لم يبرح «ناجي» ورفيقه بيت العمّة الطيبة، حتى إنه حسم الأمر برأسه بكل يقين أن أيّ مكان غير هذا البيت سيكون أفضل.

تتوقُ نفسُه للحُريّة، ولولا مشهد البحر المُتجدد أمام عينيه، لألقى نفسه من الشّرفة، وتخلّص من حياته بكل رضا.

وفّر له العجوز الأمان، لكنه لم يستطع أن يوفر له حُضن امرأة، كما اعتاد لسنوات.

كان بحاجة شديدة لامرأة يُلقي جسده بين ذراعيها، يلتهمُ شفتيها، ويشعر بنُعومة نَهديها على خدّيه، كما يُحِبّ أن يفعل دائمًا.

كان ينظر لرفيقه الطيب، وهو يضعُ رأسه الضخم على فخذ عمّته ويسترخي، ويود لو أنه يستطيع أن يفعل مثله، وينامُ هو أيضًا مكانه وتعبث بشعر رأسه، وتداعبه كطفل صغير.

الطفلُ بداخله يحتاج باستمرار لمن يُغدق عليه بالعطف والحنان.

يتذكرُ أول لقاء له بـ«نعيمة» منذ سنوات عندما رآها للمرة الأولى ورأى في ملامحها وجه والدته، فهاجت مشاعره، وخارت قوته، وغابت فُحولتُه؛ ليبكي رغمًا عنه في حُجرتها بين ذراعيها، بحُرقة شديدة وهو يضعُ رأسه فوق صدرها، وهي تضمه إليها، وتربت على رأسه بعد أن بللت دموعُه رداءها اللامع العاري الذي لم يستطع إيقاظ رجولته أمام ملامحها التي أيقظت الطفل اليتيم بداخله دفعة واحدة.

الوحدة تجعلنا نتذكرُ الغائبينَ، والخوفُ من الغد يجعلنا نشتاقُ للماضي.

«سعيد» يحتضنُ عمّته، ويدفن رأسه في صدرها، وهو يبكي بصوت مُرتفع على باب البيت، بينما «منعم» يحثهما على الانتهاء من مراسم الوداع العائليّة سريعًا، حتى لا يتأخرا عن موعد المعلم «بشارة»:

- خُد بالك من نفسك يا ضنايا، ودَفِي نفسك يا حبيبي؛ دي صحرا وبرد.

- حاضر يا عمتي، ما تخافيش.

- اِوعَى يا وَاد تنام على الرملة لَحَاجة تقرصك.

- حاضر يا عمتي، ما تخافيش عليّ والله.

- ربنا يحميك يا ضنايا، ويبعد عنك ولاد الحرام.

لم يجد «منعم» مَفرًا من دفع جسد «سعيد» خارج الشقة، وهو يُغلق بابها على العَمّة التى لم تكفّ عن الدعاء لابن أخيها، حتى اختفى صوتها تمامًا، وهما يبتعدان.

جلس ناجي وسعيد في مقصورة عربة البضائع بجوار المعلم، بينما صبيانه يجلسون في الخلف في صُندوقها الكبير الفارغ.

اغرورقت عينُ «منعم» بالدموع وهو يودّعهما، لا يعرف هل هذا لفراقهما، أو بسبب صديق عُمره الشيخ «راضي»؟

داعبه المعلم «بشارة» مَازحًا؛ ليُخفف عنه فراق الشابين، وهو يُذكّره بخطاب الشيخ، ويسأله عن خطاب الرد كما اعتاد الصديقان.

هز «منعم» رأسه بشجن، وهو يقتربُ من نافذة السيارة، ويُحدّث المعلم بصوت خفيض:

- مِش محتاجة جوابات المَرّة دي يا معلم.

- براحتك يا راجل يا عجوز، يعني مش عايزني أبلغ الشيخ «راضي» حاجة؟

- هي كلمة واحدة يا معلم، قوله منعم بيقولك «سِيب الطير يختار عِشّه».

رمقه المعلم بنظرة اندهاش قبل أن ينفجرُ ضاحكًا كعادته:

- مش قلتلك ده جواب غرامي.

ابتسم «منعم» لدُعابته وظل واقفًا يُلوح بيده، والعربة تتحرك بهم مُبتعدة حتى غابت عن بصره خلفَ ضباب الفجر الكثيف.

(٦)

لم يَكُفّ المعلم «بشارة» عن قصّ مُغامراته، وهو يسخرُ من كل أبطال القصص بمن فيهم شخصُه، كان رجلًا يُحب المِزاح، ولا يحملُ للدنيا همًّا وكأنه ملكٌ متوجٌ؛ لا يهاب شيئًا على الإطلاق وهو وسط جيشه ورعيته.

«سعيد» مُستمتعٌ بقصص المعلم ويضحكُ على دُعابته بصوت مُرتفع دون أن يفطن مرة واحدة أن أغلب تلك القصص تبدو مُختلقة الأحداث في أغلبها؛ لطيبته المُفرطة.

«ناجي» وكأنّه اعتاد السفر، يستند بذراعه إلى نافذة العربة، ويُلقي بصره خارجها، يتابعُ الطريق دون تدقيق، يشاهد دون أن يسجل عقله الصور، وينفذ صوت المعلم لعقله، دون أن ينتبه لقصصه الزائفة.

الصورة تحوّل أغلبها لرمال صفراء، قِممٌ مُتابينة الارتفاع تعلو وتهبط بشكل متلاحق لا تتلامس، ولا تشعرها منفصلة عن بعضها بعضًا.

ساعة مرت أو أكثر قبل أن يُهدّئ المعلم سُرعة العربة، ويقفُ تمامًا أمام مجموعة من الرجال يلوّحون له،

اقترب أحدهم من باب المعلم، وهو يُلقي عليه السلام بحميميّة، ويطلب منه الرجوع مرة أخرى على الفور.

ما زال حِقدُ عساكر الإنجليز يسيطرُ عليهم، ويقودهم للبحث عن مُجاهدي «مطروح»؛ يبتغون الثأر منهم.

اختفت ابتسامة المعلم، وحلت الجديّة محلها على الفور، وهو يُغيِّر اتجاه العربة دون استفسار أو نِقاش.

وجُومٌ لاحَ على وجه المعلم، ثم انتقل لوجهَي ناجى وسعيد اللذين شعرا بالقلق والخوف أضعاف المعلم:

- هو في إيه يا معلم؟!

- ما تقلقش يا ناجي أفندى، إحنا مِتعودين على كده.

- طب بس نفهم، في إيه؟

- الإنجليز يا سِيدي الله يخرب بيوتهم، كل يوم والتانى زى ما إنتَ شايف كده بيتهجّمُوا على النّاس الغلابة دِي، ويقرفوهم في عيشتهم.

- طب ليه؟!

- من ساعة العَلقة إللي كَلوها من المُجاهدين من خمس سنين، وهُمّا على دَه الحال، خايفين يتكرر إللي حصل مرة تانية.

تخلّص «سعيد» من دهشته، وتدخّل بتلقائيته:

- عَلقة إيه دي يا معلم؟!

- رجالة مطروح غير عندكم يا مصاروة يا أفنديّة، دُول ناس معاها سلاح، وضربتهم بتوجع بصحيح.

- طب وإحنا كده هانرجع تاني يا معلم؟

- مِش هانرجع قوي يا ناجي أفندي.

- يعني إيه؟!

- إحنا هانريّح شويّة في استراحة الخواجة «بيلين» لَحد ما الجو يهدَى.

لم يُعلّق أحدهما، وساد الصمتُ مقصورة العربة، حتى وصلوا لاستراحة على جانب الطريق، قبل مدخل الإسكندرية بقليل.

لم يكن بالاستراحة أيُّ زوّار قبل مجيئهم، حتى إن «بيلين» العجوز كان يَغطّ في نومه، فوق أحد مقاعد الاستراحة المُتواضعة.

انتبه الخواجة لحضورهم بعد صياح المعلم مُهللًا فور دخولهم:

- اصحَى يا راجل يا مكَحكَح.

انتفضَ الخواجة واقفًا؛ وهو يرحبُ بالمعلم ورفيقيه، ويده تتحركُ بالفوطة تمسح المقاعد بشكل تلقائي، وتملأ وجهه الابتسامة، وتظهر اختفاء مُعظم أسنانه.

- كنت عامل حسابي نفطر في «سِيدى عبدالرحمن» بس طلع نصيبنا نفطر عندك.

- يا أهلًا يا أهلًا يا معلم، أنا تحت أمرك.

- طب يلا يا خواجة شِد حيلك أُومّال، وحضّر فطور للرجالة.

- من عِيني يا معلم.. من عيني.

تحرّك الخواجة بنشاط لا يُناسب عُمره، حتى اختفى وراء ستار سميك خلف البار الكبير، بالجانب الأيسر للاستراحة.

أخذ المعلمُ يُهدِّئ من روع ناجي وسعيد اللذين بدا خوفهما وقلقهما واضحًا جليًا عليهما، عكس رجال المعلم وصبيانه:

- بلاش القلق ده بقى يا ناجي أفندي، دي حاجات بسيطة كلها.

- أنا عندي سؤال بس يا معلم بعد إذنك.

- اتفضل يا ناجي أفندي؟

- إحنا هربانين من البوليس والإنجليز إزاي، وفي نفس الوقت المعلم منعم باعتنا نستخبى في مكان بينه وبين الإنجليز تار؟!

- ما تظلمش المعلم منعم يا ناجي أفندي، الراجل عمل المظبوط.

- إزاي طيب؟!

- أنا أقولك، بقى يا سِيدى، الشيخ راضي قاعد في «بير سكران»، ودَه مكان متطرف، ومفيهُوش حَد من أساسه، زي ما إنتَ مُتخيل.

- يعني نِطمن يا مِعلم؟

- عِيب يا ناجي أفندي، أنا يعني هاضرك لا سمح الله.

- قطع حديثهما ظهور الخواجة «بيلين»، يحملُ صواني الطعام، وخلفه سيدة ثلاثينية لها شعرٌ بلون الذهب اللامع، وعينان زرقاوان بلون البحر، وأنفٌ دقيق مُرتفع، وشفتان رفيعتان ورديتا اللون، وجسدٌ متناسق لا يُمكن لأي رداء من أي نوع أن يُخفي أنوثته.

فتحَ «ناجي» فمه فور رؤيتها؛ فقد أصابه جَمالها الشديد بدهشة عارمة أنسَته مخاوفه، والإنجليز الباحثين عن المُجاهدين.

وضع «بيلين»، الصينية مُبتسمًا، ومن خلفه السيدة تحملُ زجاجات البيرة، وعلى شفتيها ابتسامة كبيرة تمنحها للجميع، دون استثناء.

قدّمت زجاجة لـ«ناجي» وهي ترمقه بنظرة مُتفحصة اخترقت رأسه، جعلته ينسى كلَّ قلقِه وانزعاجِه دفعة واحدة.

لامس بأطراف أنامله ظهر كفّها، وهو يُثبت مُقلتيه في عينيها، لتضحك بدلال، قبل أن تسحب يدها وتتحرك مُبتعدة، لتجلس بالخارج بجوار نافذة الاستراحة العريضة، وهي تضعُ ساقًا فوق الأخرى، وتسند بذراعها على ركبتها، وهي تداعب خصلة ذهبية من شعرها، وتحدّق في الفراغ، وتحرك شفتيها بتناغم مع حركة خصرها الهادئة كمَن يُدندن.

انتابت «ناجي» رجفة؛ يعرفها جيدًا عندما يتجرع الخمر، ويذهب ليلًا لغانياته، وهو يتأمّلُ تلك البارعة الجمال المثيرة، حتى بأصابع قدميها التى تتحركُ يمينًا ويسارًا، فخُيّل إليه أن ساقها تعكسُ أشعة الشمس من شدة نقائها ولمعتها.

تبادلا النظرات والابتسامات دون أن يلحظ أحد، حتى بعد أن انتهى الجميع من الطعام والشراب، حاول مرة أخرى أن يلمس يدها، لكن «سعيد» الذي تحرك بجسده الضخم فجأة بينهم؛ حال بينه وبين يدها.

الوقتُ يمُرّ حتى بدأت الشمسُ تقتربُ من المَغيب، ولا شيء جديد سوى الانتظار، حتى السيدة الجميلة اختفت بالداخل، ودبّ الملُ والقلقُ من جديد بقلب «ناجي»، حتى اقترب منه «بشارة» يُحدّثه مُنفردًا:

- بقولك إيه يا ناجي أفندي، شكلها مفيهاش سفر النهارده وإنتَ طبعًا مايرضكش العطلة.

- طبعا يا معلم.

- حِيث كده، أنا هارُدّ تاني على المينا أخلص كام مصلحة، بدل ما اليوم يروح على الأرض؛ أدِيك شايف ورايا كوم رجالة ومصاريف.

- إللي تشوفه طبعًا يا معلم، كتر خيرك على كل حال، نرجع إسكندرية.

- لاااا، نرجع فين، إنتَ وصاحبك هاتستنوا هنا لحد الصبح؟

- ليه يا معلم؟!

- الدنيا قلق زي ما إنتَ شايف، وطالما الإنجليز هنا يبقى كل المداخل هاتبقى قلق.

- بس إحنا جينا، وكان كل شيء تمام.

- لا يا حبيبي، الخُروج مِش زي الدخول، اسمع الكلام وكلها لحد الصبح وراجعلكم.

- وهو ينفع نفضل هنا يا معلم؟

- أى حاجة بالفلوس بتنفع يا ناجي أفندي.

أتمّ المعلم اتفاقه مع الخواجة، وقام صبيانُه بإنزال حقائب ناجي وسعيد، وصندوق «ناجي» الخشبي المملوء بزجاجات الخمر، والذي طلبه من «منعم» قبل رحيلهم؛ ليكفيه في رحلته، والتى لا يعرف مدتها أو شكلها.

تحركت العربة وأرشد الخواجة الشابين إلى إحدى الغرف في مُؤخّرة الاستراحة، جلسا فيها معًا.

«سعيد» يُلقي الأسئلة على مسامع «ناجي» مُتلاحقة مُتشابهة، ولا يستمع لأي ردّ، ورغم ذلك لا يكفّ عن السؤال والاستفسار.

استسلم الاثنانِ للنوم، وبعد عدة ساعات لم يتحمّل عقلُ «ناجي» الخمول أكثر من ذلك، ليستيقظ ويتحرّك للخارج، بحثًا عن رائحة غير رائحة عرق «سعيد».

الهُدوء يُخيّم على المكان برمّته، ثلاثة مصابيح مُعلقة سمحت له برؤية الخواجة العجوز نائمًا كالصباح على أحد المقاعد، والسيدة الشقراء تجلسُ ضامة ساقيها أسفل النافذة العريضة من الداخل، وهي تسندُ رأسها على معصمها وتنظر للسماء.

تقدم نحوها بخُطوات بطيئة وهو يتأملها بافتتان بالغ، شعرت بوقع خُطواته، لتلتفت إليه ويكسو وجهها ابتسامة عريضة لرؤيته:

- محِتاج حاجة يا.....

- ناجى، اسمى ناجى يا.....

- اتسعت ابتسامتها أكثر، وهي تعتدلُ بجسدها تجاهه، لتفسحَ له الجلوس بجوارها.

- وأنا «إيها».

- نظر بطرف عينيه تجاه الخواجة النائم، وهو يُشير لها برأسه:

- إنتِ بنته؟

- خرجت من فمها الصغير ضحكة مُجلجلة جعلت الخواجة يتململُ قلقًا في نومه، وهو يحرّك فمه، كمَن يأكل و«ناجي» يمتقع وجهه خجلًا، وهو يشير بإصبعه لتخفض صوتها:

- إيه إللى بيضحكك؟!

- بيلين جُوزى مش أبويا.

- جُوزك!، معقولة؟!

- مِستغرب ليه؟!

- أصل... أصل.

- مفهوم، أنا صغيرة وهو راجل عجوز، مِش كده.

- بصراحة آه.

- ما قلتليش، أنتم رايحين مرسي مطروح ليه؟!

- وإنتِ ما قلتليش.. قالها وهو يُشير بإصبعه تجاه العجوز، وهو يقطب حاجبيه؛ تعبيرًا عن دهشته.

- عادى، جُوزي الأولاني رجع اليونان، وأنا ما رضيتش أسافر معاه، ومكنش قدامي فرصة أحسن من بيلين.

- معقولة حَد بجمالك يقول مكنش قدامى فرصة؟!

- ضحِكت بقوة مرة أخرى ولكنها هذه المرة وضعت كفها على فمها تمنع صوتها من الارتفاع.

- إنتَ بتغازلني يا ناجي أفندي.

- لأ، أنا مِستغرب بجد.

- أنا اتولدت هنا في إسكندرية، وعِشت وكبرت واتجوّزت هنا وعارفة كويس إن إللي زيي معندهُمش فرص أفضل من كده.

- إزاى، إنتِ إللى زيك يتفرش تحت رجليها الورد والدهب.

- مِش بقولك بتغازلني يا ناجى أفندي.

- والله بتكلم بجد.

- واحدة فقيرة من غير أب ولا أم وجُوزها سابها وسافر، محدش هايفرشلها الأرض ورد ودهب، ممكن يطمع فيها زي عشوة حلوة أو إزازة نبيذ معتق يشربها، وهو بيرقص لكن يتجوزها، ويصرف عليها، يبقى مفيش غير عجوز وحيد زي «بيلين»، عايز مُساعدة ليه من غير أجرة.

- بس الكلام ده يتقال على أى واحدة عادية، مش واحدة في جَمالك.

- إنت أكيد تقصد بنات إسكندرية مش بنت يونانية بتغني وترقص في البارات.

لم ينطق بعد أن فهم مَغزى كلامها، وشخص ببصره بعيدًا، تتداخل برأسه صور متفرقة لـ«نعيمة»، وكيف كانت بالنسبة له، هو أيضًا مُجرد عشاء ساخن يتناوله مع زجاجة نبيذ.

أفاقه من شرودِه صوتُها الذى يُشبه تراقص أوتار الكمان:

- ما قلتليش رايح مطروح ليه؟!

- إحنا رايحين «بير سكران»، عند واحد قريبي.

- إيه بير سكران ده؟!

- رمقها بنظرة طويلة، وهو يتأمّل عينيها، اللتين يرى تتابع الموج في زرقتيهما، كمَشهد البحر من شُرفة العَمّة الطيبة.

- تِصدّقي أنا أصلًا معرفش.

- ضَحِكَت مرة أخرى، وهي تدفنُ رأسها بين كفيها تمنع صوتها وشعرها الذهبى يتطايرُ حولها، قبل أن تعيده بأناملها، كما كان غجريًا ثائرًا كهالة مُضيئة حول وجهها.

- أومّال رايح هناك لِيه؟!

- رايح لواحد معرفة اسمه الشيخ راضي، نُقعد عنده كام يوم.

- مممممم، شكلك هربان من حاجة، اوعى تكون من المُجاهدين.

اضطرب بشدة لجُملتها، وتلعثم بشكل ملحوظ، وهو يشير بيده بعصبيّة:

- هربان؟، هاكون هربان من إيه؟

- ما تتخضش كده، كلنا هربانين.

- وإنتِ هربانة من إيه؟

- بُص للعجوز النايم، وإنت تعرف هربانة من إيه؟

- هزّ رأسه، وهو يخفِضُها لأسفل بتأثر واضح، ويتحدث دون أن يرفعها، كأنّه يُريد الهروب من تأثير نظراتها عليه:

- أنا فجأة لقيت نفسي مِدبّس في جريمة، ومفيش أمل أبرّأ نفسي، وغصب عنى لازم أستخبى شوية؛ لَحد ما أشوف هاعمل إيه؟

- ربتت بكفّها على ركبتِه بعطف واضح، وهي تتحدثُ بصوت هادئ:

معليش، بُكرة الحقيقة تبان وما تهربش تاني.

- وإنتِ؟

- أنا إيه؟!

- ها تفضلى هربانة لحد إمتى؟

- صدّقني مَعرفش، ومِش عايزه أفكر من أساسه؟

- تيجي معانا؟

- لم تستطع هذه المرّة وضع يدِها على فمها؛ لتنفلت منها ضَحكتُها مرة أخرى بقوة كبيرة، كادت تُوقظ زوجها العجوز.

- إيه إللي بيضحّك في كلامي؟!

- إنتَ أول مرة تشوفني وأول مرة تكلمني، وعايزني أهرب معاك؟!

- اعتراه الخجلُ الشديدُ من جديد، وتلعثم أكثر من ذي قبل.

- أنا عايز أساعدك مِش أكتر.

- نظرت له بتفحُّص شديد في عينيه مباشرة، حتى إنه أشاح بنظره رغمًا عنه؛ هروبًا من أسئلة نظراتها الكثيرة التى لا تنقطع.

- للدرجة دى مُهتم تساعدني؟

- ده لو حبّيتى طبعًا.

- ابتسمت ابتسامة عريضة، وهبّت واقفة وهي تزيحُ خصلاتها من على وجهها:

تصبح على خير يا ناجي أفندي.

تحرّكت واختفت من أمامه، لتتركه مرّة أخرى وحيدًا يُشعل سيجارته، ويأخذ مكانها في النافذة، يتأمّل السماء بهدوء واستكانة.

- انقضت الليلة، وناجي لم يتذوق طعم النوم مرة أخرى حتى جاء الصباح، وجاءت عربة المعلم «بشارة»، من جديد، وهُما ينتظرانه أمام الاستراحة.

«ناجي» يجلسُ مُتحفزًا فوق حقيبته، وبجواره «سعيد»، يجلس مُمدد الساقين على الأرض بجواره،

ركب الجميع وتحرّكت السيارة، وناجي ينظر من نافذة العربة؛ يبحث عن «إيما»؛ حتى لمحها في آخر لحظة تقف خلف النافذة العريضة، تنظر له دون ابتسامة للمرة الأولى، وهي تلوِّحُ بيدها ببطء تودعه.

طول الرحلة لم يتوقف صوتُ ثرثرة بشارة، ولا صوتُ ضحكات سعيد على أحاديثه التى لا تنتهي، وإنما تتشابك جميعُها بسبب أو بغير سبب.

في النِّهاية، ظهر البيتُ المصنوعُ من الخشب والحجارة، القابع في حُضن التل الكبير، والذي أشار إليه بشارة بحماس:

أدِينا وصلنا بيت الشيخ راضي، حمد الله على السلامة يا رجالة.

قبل أن تتوقفَ العربة، مسح «ناجي» المكان ببصره يتفحَّصه باهتمام بالغ، البيتُ يتوسّط المكان، الذي يقع كله في ركن التل، والذي يبدو كما لو كان مدينة مهجورة، أو بقايا حياة انقضت منذ قرون.

حوله سورٌ كبيرٌ يُحيطه من الزوايا الثلاث، يجعله يبدو، وكأنه يستند إلى التل.

يمتلئ السُّورُ بالدَّجاجات، ذاتِ الألوان المُختلفة والديوك الرومي ذات الرِّقاب المُتدليّة، والتي تصيحُ بتناغم بين الحين والآخر.

بجوار البيت، سورٌ آخر كبير، أكبر من مساحة البيت بكثير، تنتشرُ فيه الأغنامُ، تستطيع شم رائحتها قبل الوصول للبيت بمسافة.

أمام البيت، وعلى بُعد عدة مترات، بئرٌ لها مدخلٌ مرتفعٌ من الطوب الأحمر الدّاكن، شعر عند رؤيتِها من بعيد، وكأنّها رأس مثلث فوق سور الأغنام وسور البيت.

وقفت العربة، وقبل أن ينزل أيُّ شخص منها، ظهرت فتاة من بعيد، على مرمى بصرهم، تأتي في اتجاههم وهي تحملُ تحت إبطها ربطة كبيرة من العُشب الأخضر، تلفُّ عليها ذراعها، كأنها تحملُ طفلًا صغيرًا.

نزل ناجي، وسعيد خلف بشارة وهم يتطلعون للفتاة القادمة نحوهم، و «بشارة» يخبرهم بصوت خفيض،

دي «هند» بنت الشيخ.

اقتربت منهم لتتضح ملامحها أكثر لهم، خمريّة اللون، وكأنها وقفت على الحياد بين بشرة أبيها السمراء، وبشرة أمها البيضاء.

لها أعينٌ واسعةٌ، عسلية اللون تبدو رموشُها الطويلة من حولها وكأنها مجموعة من الحُرّاس الأقوياء الواقفين باستقامة وتيقظ.

وجنتاها لهما حُمرة نضرة، لا يعرف إن كانتا كذلك بالفعل أم بسبب حرارة الشمس المُرتفعة، ولها غمّازتان يظهران بوضوح حتى دون أن تبتسم.

فَم ذاتُ شِفاه وردية مُكتنزة تحت أنفها الدقيق، المرتفع بشموخ وكبرياء، كتلك الخصلات البُنيّة اللون الظاهرة من تحت غِطاء رأسها الصغير، والذي يسمح لشعرها الغجريّ المتموج بالتمرد من الأمام، والخلف ليُحيط رقبتها العاجيّة بهالة مُضيئة تزيدها سحرًا وجاذبية.

تخطفُ أعيُن من يراها، فيغرق في قراءة خريطة حُسنها، الذي لا تُخطئه عَين، فلا يجد وقتًا كافيًا ليتفحَّص جَسدَها الروماني الطويل المعتدل، ذا النّهود الثائرة المُرتفعة، وكأنّها تتطلع إلى السماء.

ألقت «هند» العشب بجوار السور الخشبيّ، وهي تشير لهم مُرحّبة بالدخول للمنزل، وهي تتحركُ أمامهم بقوة ووقار أفسدها تراقصُ خصرها مُتعدد الانحناءات دون أيِّ إرادة منها.

عبروا بهو البيتِ الواسع المُغطى بالكامل بالسجاد المُزركش، ذي الألوان الزاهية، ليتناغم مع تلك القطع المُعلقة على الحوائط وبعض المقاعد الخشبيّة ذات اللون الأحمر الداكن.

وقفَت أمامَ باب إحدى الغرف، وهي تشير لهم بيدها ليعبر بشارة وخلفه «سعيد» وفي النهاية تبعهما «ناجي» الذي يتحرك ببطء، وهو لا يرفع بصره عنها حتى إنها شعرت بنظراته المُتفحصة لها لتشيح بصرها عنه، وتتحرك مُبتعدة.

حاول الشيخُ راضي النهوض فوق فِراشه، قبل أن يتقدم نحوه بشارة، مُشيرًا له ألا يُرهق نفسه بالحركة وهو يُقدم له ضيفيه الجديدين:

سعيد وناجي يا شيخ راضي، قرايب المعلم «منعم».

اتسعت ابتسامة الشيخ، وهو يمُدُّ يده لهما بمودّة شديدة:

- أهلًا وسهلًا يا ولاد، نورتوا الدنيا بحالها.

- منورة بيك يا شيخنا.

- ده بيتكم يا ولاد، منعم حكى لي عنكم وفهِّمنى الموضوع، وإن شاء الله مش عايزكم تشيلوا هَم حاجة خالص طول ما أنتم هنا.

- كتر خيرك يا شيخ، إحنا عارفين إننا هانتقل عليكم بس أكيد إنت فاهم الموضوع.

- ما تقولش كده يا ناجي يا بني، البيت بيتكم.

قطع حديثهم دخول «هند» وهي تحملُ صينية الشاي وتضعها بتعجُّل واضح ليوقفها صوتُ أبيها المريض:

رحّبي بالضيوف يا هند، إخواتك سعيد وناجي دول من ريحة عمك منعم.

نظرت لهما بخجل، وهي تهز رأسها، وترسم ابتسامة على وجهها:

- أهلًا وسهلًا.

تحركت مُغادرة دون أن تنتظر ردًا منهما، والشيخ يُمسك يد «بشارة»:

- منعم بعت معاك حاجة؟

- علت ضحكة «بشارة» وهو يضربُ على يد الشيخ مُداعبًا:

- مفيش جواب غرامي المرة دى يا شيخ.

- هاهاهاها، الله يجازي شيطانك يا بشارة.

- صاحبك وصّاني أبلغك جملة واحدة، وقالى إنت هاتفهم.

- قالك إيه الراجل العجوز ده؟

- بيقولك «سيب الطير على راحته».

- هزّ الشيخُ رأسه مُبتسمًا وهو يقلبُ بصره بين سعيد وناجي.

- في دي عنده حق.

نهض بشارة وهو يربتُ بيده على كتف الشيخ بتقدير ومودة:

- نفسي أشبع من قعدتك يا شيخ، بس إنت عارف بقى،

ثم نظر للشابين اللذين نهضا لتوديعه:

الشيخ راضي بركتنا، شيلوه في عينيكم يا ولاد.

- ما تشيلش هم يا معلم، جُوز عمتى موصينى قبل منك.

- ماشي يا عم سعيد، طالما جُوز عمتك مُوصيك يبقى خير.

غادر بشارة، وجلس الجميعُ في حجرة الشيخ، يُخيم عليهم الصمت وهو ينظر لهم شاردًا، كأنه يُفكر بأمر ما، ثم انفرجت ابتسامتُه ومد يده أسفل وسادته، ليُخرج مفتاحًا نحاسيًا يضعه في يد «ناجي» الجالس بجواره:

- ده مفتاح القاعة الغربية،يروحوا ريّحوا لحد الغدا ما يجهز.

نهضَ «سعيد» واقفًا، وهو يهرشُ في رأسِه، ويتلفتُ في أنحاء الحجرة:

- فين القاعة دي يا شيخ راضي؟

- على إيدك اليمين بعد التبة يا سعيد يا بني، ما تقلقش نضيفة قوي، ومجهزينها لكم من قبل ما توصلوا.

تحرّكا للخارج، نحو القاعة، وناجي يتلفت يبحثُ عن هند، ولا يجدُ لها أثرًا.

كانت القاعة مُتوسطة المساحة، بها فراشان لهما، وبعض الفَرشِ البسيط الذى لا يخلو من الألوان الزاهيّة ككلِّ شيء في المكان.

أتما وضع مُتعلقاتهما، وألقى «سعيد» جسده على الفراش، لينام خلال دقيقتين، بينما جلس «ناجي» على مقعد خشبيّ أسفل النافذة؛ يُشعل سيجارته، وينظر للخارج يتأمّل المكان الذي يلفه الصمت والسحر من كل الزوايا.

لم يعتد على هذا الهدوء يومًا ما، فبدا كلُّ شيء على نفسه غريبًا، تهابه نفسُه دون أن تخافه.

رأسُه مُحمَّلٌ بأصوات الباعة، وصراخ أم هدى وصخب زملائه بالعمل ومُوسيقى البار، وآنات الغانيات.

لم يعتد من قبل أن يجلسَ لا يسمعُ شيئًا، أيّ شيء.

اخترق سمعه صوتٌ ثغاء الماعز، ليبتسم رغمًا عنه، وهو يُدرك لحظتها طبيعة الصوت الجديد في عالِمه الجديد.

أرجع رأسَه للوراء، بعد أن قذف سيجارته المُنتهيّة من النافذة، وهو يسترجعُ ملامح هند التي لم يرَ مثلها من قبل بهذا التفصيل والرسم.

فُستانها لا يُشبه ملابس المدينة، ولا ملابس الريفيّات، ولا حتى ملابس خواجات الإسكندرية، وكأنه صُنع لها وحدها فقط.

لونُ بشرتها، لونُ شعرها، لونُ عينيها، حتى صوتها الذي تشعرُ بأن به رجفة أو هكذا خُيل له.

كلُّ شيء فيها لم يعتد رؤيته من قبل.

قلبه سريعُ التعلق، سريعُ الانفعال، وكأنّه لا يستطيعُ العيشَ دون حالة تسكنه وتُسكر قلبَه كزجاجة الخمر التى تُسكر رأسه.

حاول طرد صورتها، من رأسه، وهو يُذكِّر نفسه بأزمته، وحاله الذي وصل إليه.

هاربٌ خائفٌ لا يعرفُ عن الغد أكثر ممّا يعرفه عن اليوم، فقط الغموض والترقبُ والخوفُ من كل شيء، وأي شيء.

لا يعرفُ كم مرّ من الوقت، وقد غلبه النّعاسُ في مكانه خلف النافذة، حتى سمع صوتَ طرقات فوق باب القاعة الخشبيّ، ليهب واقفًا يفتح الباب ليجدها أمامه، تحملُ صينية نُحاسية كبيرة مُغطاة بقماش مُزركش خفيف.

- اتفضلوا الغدا.

- مُتشكر، أومّال الشيخ راضي مِش هايتغدى؟

- لأ هو بيتغدى متأخّر قوي، اتفضلوا انتوا بالهنا والشفا.

لم تترك له مجالًا لحديث أطول؛ حيث غادرت وتركته يعاني؛ في إيقاظ «سعيد» الذى وثب بسرعة أمام صينية الطعام رغم ضخامته؛ ليأكل بشراهة وهو يمدحُ في نَفَس هند الواضح أثره في طعامِها الشهيّ، ورائحته النفاذة القويّة.

في المساء استطاع الشيخ «راضي» الخروج للجلوس أمام البيت بعد مُساعدة ناجي وسعيد له، ليجلسَ الجميعُ على ضوء القمر؛ يتجاذبون أطراف الحديث، و«هند» تجلس على بُعد خُطوات منهم، تُمسك بكرة الصوف والإبرة الطويلة، مُنهمكة في الحياكة:

- إحنا مِش عارفين نُشكر جِميلك ده إزاي يا عم الشيخ.

- ما تقولش كده يا ابني، أنا وجُوز عمتك أكتر من الإخوات، والبلد دى طول ما فيها الإنجليز بيبرطعوا فيها مَحدّش فينا ضامن نفسه.

- عندك حق والله يا شيخ، أنا كان مالي بس ومال القطر وإللي حرقوا القطر.

- وَحِّد الله يا ابني، وربك مش هاينساك ولا يتخلّى عنك، طالما إنت ما أذيتش حد.

- يعلم ربنا يا شيخ، عُمري ما أذيت لا بنى آدم ولا حتى حيوان.

- خلّيها على الله يا ابني.

كان «ناجي» صامتًا مشغولًا بمُتابعة هند، دون أن تلحظه، وهو يتذكر بجلستها والدته، وهي تحيكُ له ملابسه القديمة المُهترئة من شدة فقرهِم، ليجثو على صدره حنينٌ بالغٌ لها، والارتماء بين ذِراعيها، والبُكاء من كل قلبه:

- شَايفك مِش مبسوط يا ناجي أفندي؟

- إيه؟!، آه.. لأ، بالعكس يا عم راضي.

- عُمومًا يا ابني بكرة ربك يظهر الحق، وترتاح.

- واضح إنك عارف كل حاجة يا عم راضي.

- أومّال يا ابني، منعم حكى لي كل حاجة في جوابه، ومِن غير ما حتى يحكي، الجواب بيبان من عنوانه، وانتوا باين عليكوا ولاد حلال.

- الله يكرم أصلك يا شيخ، بس..

- بس إيه يا ابني؟!، قول إللي في قلبك.

- إحنا ها نقعد كده، لا شُغلة ولا مَشغلة؟!

اتسعت ابتسامة الشيخ المريض، وسعل مرتين بِوَهن بالغ، وهو يمسحُ الرذاذ من فوق شفتيه:

- أنا يا ابني صحتي في النازل، زي ما إنتَ شايف، ومَخبّيش عليك إنتوا جيتولي في الوقت المُناسب علشان تشيلوا عنّي شوية، والبركة في صحتكم.

- إزاى يا شيخ، مِش فاهم؟

- بَقى زي ما أنتوا شايفين أنا مابقيتش أقدر أتحرك وراقد في فرشتى طول الوقت، إنتوا هاتشتغلوا مكاني مِن هنا ورايح، وأهُو الرِّزق إللي هايبجي يكفينا كلنا.

تلفّت «سعيد» حوله حائرًا، ثم نظر لصديقِه بدهشة قبل أن يُوجِّه حديثه للشيخ المريض:

- يعني لا مُؤاخذة ها ناخد بالنا من المِعيز؟!

لم يتمالك الشيخ نفسه من الضحك، ليختلط ضحكُه بسعاله القويّ المُتكرر:

- لأ يا سعيد يا ابني، سيب المِعيز على هند، هي ها تراعيهم.

- أومَّال إيه يا شيخ فهمِّنا

إنتوا هاتطلعوا على العربيّة تلموا الزرع من الفلاحين، من البلاد اللى حوالينا، والغنم الجاهزة للدبيح لحد ما كل أسبوعين تلاتة ييجي المعلم بشارة يحمِّل، ويحاسبكم.

هزَّ الشابان رأسيهما؛ بعد أن فهما طبيعة عملهما، مع الشيخ الودود، ليُعاود «سعيد» التلفّت حوله من جديد، بنفس الحَيرة:

- هِي فين العربيّة دي يا عم الشيخ؟

- العربية مع الشيخ «طه» الله يباركله بقاله كام أسبوع بيشتغل مكاني، لكن من بُكرة البركة فيكم بقى.

ربت «ناجي» على كتف الشيخ، وهو يتعهد له بتحمل المسؤولية، وإتقان عملهما، بعد أن أوضح له الشيخ أنه لا خوف عليهما من أحد هنا في حركتهما حول «بير سكران»، حتى الإنجليز أنفسهم لا يشغلهم أمر المُهتمين بعملِهم؛ فبحثهم الدائم عن المُجاهدين فقط؛ حتى لا يقعوا في فخ الخسارة مرة أخرى.

(٧)

لم يمُر وقتٌ طويلٌ، وقد تعلم «ناجي» قيادة عربة الشيخ القديمة؛ بفضل الشيخ «طه» الرجل الأربعيني الشهم الذي لا تفارق الابتسامة وجهه.

لم تكُن العربة كبيرة ضخمة كعربة المعلم «بشارة»، فقد كانت متوسطة الحجم، قديمة مُتهالكة بالكاد تسير.

خلال أشهر قليلة، استطاع الشابان معرفة الطرق وأسماء المُزارعين وأماكنهم، وكل شيء بسرعة كبيرة بفضل تباعد البيوت، وسهولة تمييز أهلها بألقابهم وقبائلهم المُختلفة.

كان الأكثر فرحة بعملهما الجديد هو «سعيد» الذي وجد فيه تقاربًا بينه وبين عمله القديم في بلدته، فكان يعرفُ الكثير والكثير من المعلومات عن الزراعة والأرض ومواعيد المحاصيل، حتى وإن كانت تينًا وزيتونًا، وليست قطنًا وقمحًا كما يوجد بالبدرشين.

«سعيد» الطيبُ الخجولُ يدقُّ قلبه لأول مرة ويتعلق بـ«وداد» ابنة الشيخ «علام»، الفتاة السمراء صاحبة «البيشة» المُزركشة التي لم تُخف جمال عينيها.

أصبح ينتظر بفارغ الصبر بداية كل شهر؛ لزيارة مزرعتهم حتى يراها، ويظل واقفًا بلا حركة.

فقط يُحدّق فيها من بعيد بفم مفتوح وابتسامة طفولية؛ حتى إن أمها رأته وهو يحدّق في ابنتها، وهي تبادله النظرات والابتسامات لتنهرها بعنف وغضب، ويقع الخوفُ في قلب «سعيد» الذي يهرولُ لصديقه لينقذه، ويُنقذ حبيبته من بطش وغضب أمها.

لم يجد «ناجي» مفرًا من أن يقصَّ على الشيخ المريض قصة صديقه ليضحك الشيخ، وكأنه أمرٌ هينٌ ويطلب منه أن يذهب في الصباح، ويستأذن الشيخ «علام» للحضور له.

لم يكن من السهل على «علام» قبول زوج لابنته غريب عنهم، لولا حُبه الشديد للشيخ «راضي» الذي يعرفه منذ سنوات طويلة، ويُكِنُّ له المحبة والاحترام والثقة، خاصة بعد أن طلب منه اعتبار «سعيد» ابنه، وأنه يطلب مُصاهرته.

مكانة الشيخ «راضي» في قلوب الجميع كانت أكبر من العادات والتقاليد، لتفسح المجال لشاب غريب مثل «سعيد»- لم يمر على وجوده بينهم عام كامل- أن يتزوج منهم، هكذا بكل سهولة، وكأنّ الدنيا التي قست عليه وأبعدته عن دياره وأهله أرادت تعويضه بهذا الزواج غير المتوقع.

لم يُصدّق «سعيد» نفسَه من الفرحة؛ عندما علم قبول الشيخ «علام» زواجه من ابنته، ليظل يقفز في الهواء، ولحمُه يتراقص مع حركته بشكل مُضحك.

قبل انتهاء الشهر المُهلة على موعد الزفاف، كان «ناجي» يتابعُ العمال، وهم يزوّدون القاعة الغربيّة بجناح أصغر بجانبها، ليترك لصديقه وعروسته القاعة عشًا للزوجيّة.

الوحدة تعتصرُ قلبه، ولا يُعينه عليها سِوى تلك النظرات التي يفطنُ إليها من أعين «هند» تجاهه، من وقت لآخر.

لا يعرفُ حقيقة مشاعره نحوها، ولا مشاعرها تجاهه أو تجاه أى شيء، فهي لا تتحدثُ إلا نادرًا، ولا تجدها أبدًا بلا شيء تفعله.

إن لم تكن تُطعم دجاجها فهي ترعى الغنم، أو تجلس بتركيز بالغ تمسك صُوفها وإبرتها تصنع المفروشات بلا كَلل أو ملل.

في المساء، يجلسُ خارج القاعة يحتسي إحدى زجاجات الخمر التي يمده بها المعلم «بشارة» من حين لآخر، وهو ينظر للفراغ.

تبهتُ كلُّ الصور في عقله رويدًا رويدًا، وتظلُّ صورة «هند» وهي تجلسُ أمام البيت تطعم دجاجها، وكأن الدجاج أطفالها الصغار هي الأوضحُ في رأسه.

القمرٌ مُكتملٌ، والهواء يتحركُ بلطف حوله، والأرض أمامه تبدو كأنّها لوحة مرسومة بدقة، عندما سمع في جوف الليل صياح الدجاج فجأة على غير العادة، فتحامل على نفسه يُقاوم ترنُّحه ليرى ماذا يحدثُ خوفًا من أن يكون قد هاجمها ذئبٌ أو ما شابه؟.

قبل البيت بخُطوات وجد «هند» تلف شالها على كتفيها، وتمشي بخُطوات بطيئة، حتى وصلت عند البئر، وجلست على الصخرة الكبيرة بجوارها.

اقتربَ منها ببُطء وحِرص، حتى انتبهت له، وهبّت واقفة، فلم تكن تتوقع أن يُفاجئها أحد في خلوتها:

- أنا آسف، مش قصدي أخضك.

- لأ، أبدًا ولا يهمك، بعد إذنك.

أوقفها صوته الصادقُ قبل أن تغادر:

أرجوكِ خليكِ قاعدة، أنا ما قصدتش أضايقك، أنا بس كنت بطمّن إن مفيش حد غريب.

كان قد أصبح قريبًا منها بشكل كبير، لتشم رائحة الخمر التي تفوحُ من فمه ليظهر الامتعاضُ على وجهها:

- إيه ده؟، إيه الريحة دي؟

أَلجَمَ امتعاضُها لسانه ليشعر بأنه يسقط من فوق سفح جبل من الخَجل، وهو يضعُ كفه لا إراديًا على فمه، كأنه يمنع انتشار رائحته:

- لامؤاخذة.

- دي ريحة خمرة، مِش كده؟

- آآآ.

هزّت رأسها لتعفيه من الرد وهي تهمُّ مرة أخرى بالحركة.

يمُدُّ يده المُرتجفة يمسكُ يدها ليُوقفها، قبل أن تسحبها بسرعة فائقة، وهي تحدِّق فيه بأعين غاضبة مفتوحة:

- آسف، ما قصدتش.

- اتفضل قول عايز إيه علشان عايزه أدخل أنام.

- إنتِ ليه بتعامليني كده؟

- كده إللي هو إيه؟!

- من ساعة ما جينا هنا وإنتِ زي ما تكوني خايفة تكلميني، لو وجودنا مضايقك إحنا مُمكن نِمشي.

- أنا مش خايفة ولا حاجة، ثم إنتم ضيوف الشيخ راضي، يعنى تعتبروا زي أهل البيت.

- إحنا بقالنا تقريبًا سنة، في ضيوف بتفضل سنة؟!

- خلاص يا سيدي بلاش ضيوف، إنتم أصحاب مكان.

- طب ممكن أفهم ليه؟.

- هو إيه إللي ليه؟!

- ليه بتهربي منّي؟!

- أهرب منك؟، واضح إنك مِتقل في الشرب يا ناجي أفندي.

- مش قصدي اللي إنتِ فهمتيه، أقصد يعني..

- أنا أقولك قصدك يا ناجي أفندي، إنت فاكر كل البنات زي عندكم في مصر بيتكلموا مع الشبان عادي.

- لأ طبعًا، أنا ماقصدش أقول كده.

- تقصد ولا ماتقصدش، إنتم برضه ضيوفنا، تصبح على خير.

تركته دون أن تنتظر ردًا منه، ليجلسَ مكانها فوق الصخرة، تتداخلُ الأفكار برأسِه، ولا يعرفُ ماذا يفعل معها، وكلما حاول الاقتراب فشل وزادت المسافة بينهما.

لم تشفع عندها نظراته المستمرة لها، ولم يُجدِ لقاؤهما هذا في صُنع حوار بينهما.

في الصباح كانت تتحاشى النظر إليه تمامًا؛ حتى يئس من مراقبتِها، وعاد ليجلس وحيدًا بعيدًا عن الجميع.

أصرّ «سعيد» على أن يُغيّر كلَّ فرش القاعة، واشترى وهو بصحبة صديقة ملابس جديدة له، والكثير من الهدايا لعروسه، فقد كان يملكُ الكثير من النقود بفضل عملها الجديد، وأيضًا ما يحمله من نقود فلاحي قريته، التي ما زال يحتفظ بها منذ الحادث.

وقف «ناجي» أمام أحد الدكاكين؛ يتفحّص السلاسل والعقود، ليقع اختياره على أحد العقود، ويشتريه على الفور، دون أن ينتبه له رفيقه أو حماه اللذان يرافقهما في التسوق.

ثلاثُ ليال لم يستطع فيها «ناجي» أن يختلي بـ«هند»، حتى حانت له الفرصة أخيرًا ذات مساء؛ بعد أن أنهى جلسته مع الشيخ المريض؛ يستمع لقصصه القديمة عن شبابه وعن الميناء.

كانت عند البئر؛ تملأ الإناء الكبير عندما اقتربَ منها وهو مُرتجف مُتلعثم:

- هند.

- لم تترك هند عينيها تقعان مباشرة على عينيه، وهي تردُّ عليه بجدية:

- نعم يا ناجي أفندي، مِحتاج حاجة؟

أخرج العقدَ من جيبه، ومدَّ يده المُرتعشة، ووضعه أمامها فوق سور البئر:

- أنا جبتلك العقد ده، ولم ينتظر منها ردًا، وتحرّك بسرعة وبخُطوات واسعة مُغادرًا كأنّه يهربُ من أن يصدمه ردُّ فعلها، ففضل الهروب عن مواجهتها.

لقد أتقن الهُروبَ بشكل كبير في الآونة الأخيرة وأصبح خبيرًا به، أصبح الآن هو من يتجنّبها، ويتجنب نظراتها، وإن كان يُحملقُ فيها بشدة عندما يُوقنُ أنها لا تراه.

الأيامُ تمُرُّ، وموعد زفاف رفيقه يقتربُ، ورحلاتهما للقرى لا تتوقف، فهما مُهتمان بعملهما على أي حال بكل رضا وحُب.

الغروبُ يلوحُ في الأفق، وهما عائدان للبئر، حتى ظهر لهما رجلٌ بجلبابه الأبيض يُلوّحُ لهما بيده بقوة.

توقف «ناجي» على الفور، ليتفاجأ بأن الرجل مُصاب وملابسه مُلطخة بالدماء، وقع الرجلُ مغشيًّا عليه فور توقفهما، وكأن طاقة تَحمله انتهت فور شعوره بوجود أحدهما ليُنقذه.

لم يَعرفا كيف يَتصرّفان، لكنهما بكلِّ تأكيد لا يستطيعان ترك الرجل المُصاب، فقام «ناجي» بحمله، ووضعه بالعربة لتتلطخَّ ملابسُه هو الآخر بالدماء:

- يا سنة سُودة يا ناجي، هي المصايب ورانا ورانا.

- اصبر يا سِيدي خليني أفكر هانعمل إيه؟.

- ياهوي.. يا هوي، مِش هالحق أخش دنيا يا أمه.

- يا بني اُسكت، الله يخرب بيتك، مِش عارف أفكر منك.

لم يكُن الأمرُ هينًا على شخص كناجي، عاش طوال حياته وحيدًا مُنعزلًا لا يملك من الدنيا خبراتٍ، غير تذوق الخمر ليعرف الجيد من المغشوش، ومعرفة طرق إمتاع النساء.

كان أقرب مكان لهما هو «سيدي عبدالرحمن»، فقرر الذهاب للشيخ «مختار» لمُساعدتهما مع المُصاب الغريب.

هرولَ الشيخُ «مختار» ورفاقه في حمل المُصاب واستدعاء الطبيب، الذي نجح ببراعة وخبرة في إخراج الرصاصة التي أصابت كتفه، ولكنه قد نزف لفترة طويلة.

انهالت عباراتُ الشكر والعرفان بالجميل على ناجي وسعيد، اللذين أنقذا المناضل الشيخ «كامل» برجولة وبطولة، ولم يخافا ويتركاه يلقى حتفه على قارعة الطريق.

ورغم انتهاء المعركة الكبيرة بين المُجاهدين والإنجليز، فإن الصراع والنضال والجهاد ضدهم لم يتوقف دقيقة واحدة، وقد كان الشيخ «كامل» أحد أهم رجال المُجاهدين.

عادا أخيرًا لـ«بير سكران»، وقد تأخر الوقتُ كثيرًا عن عادتهما، ليجدا «هند» تقف بانتظارهما، يعتري وجهها القلقُ والترقبُ.

نزل «ناجي» مُتباطئًا، وهو ينظر نحوها باضطراب، لترى الدّماءَ تلطخ قميصه فتعتري الدهشة وجهها، وتهم بالحركة نحوه، ولكنها تتوقف بعد خُطوة واحدة مُضطربة تتشابك أصابع يديها بتوتر:

- حصل إيه؟!، إنتم كويسين؟

- الحمد لله، إحنا كويسين مفيناش حاجة.

تشيرُ بإصبعها نحو قميصه بارتباك جاهدت في إخفائه فظهر أكثرَ وضوحًا:

- إنت اتعورت؟

- لأ، أنا كويس.

- طيب أبويا مِستنيكم من بدري.

تبعها ناجي وسعيد، ودخلا إلى الشيخ على الفور؛ ليُطمئناه عليهما، ويَقصَّان عليه ما حدث، ليملأ القلق وجهه ويُحذرهما من العودة المُتأخرة مرة أخرى، وأن يحتاطا بشدة من الإنجليز.

كانت «هند» تقفُ خلف الباب؛ تسترقُ السمع؛ لتعرف ماذا حدث، وسبب الدماء فوق قميص «ناجي» لتشعر بالطمأنينة بأنه ليس مُصابًا، وتختفي في غرفتها بعيدًا عن عينيه.

يومان لم يُغادرا فيهما البئر حتى تهدأ الأمور، وعادا لعملهما من جديد.

خرجَ «ناجي» بالعربة وحده، بعد أن ترك صديقه بصُحبة حماه، لشراء بعض لوازم العُرس، فقد كان عليه قطع مسافة طويلة؛ للوصول لشمال «سيدي براني»، بالقرب من الميناء، والعودة مرة أخرى لاصطحاب رفيقه.

كان مُحدّقًا في الطريق، لا يُفكر في شيء مُحدد، حتى رأى في مرآة العربة الجانبية عربة كبيرة حربيّة، خاصة بالجُنود الإنجليز تأتي مُسرعة من خلفه، حتى إن الماعز في صُندوق عربته علا صوتها من صخبها.

أصبحت العربة بجواره وجُنديّ إنجليزيّ يُشير إليه بغطرسة ليتوقف؛ ويترجل منها هو وآخر، ويفتحان صُندوق العربة، مُتجاهلين «ناجي» تمامًا، ويُخرجان بعض الماعز، ويأمرانِه بوضعها في صُندوق عربتهما، وهما يُشهران بندقيتيهما في وجهه.

لم يَعرف ماذا سيفعلُ، وإن كان الغضبُ يملأ عقله، والخوفُ منهما ومن الإمساك به يملأ قلبه ليجد نفسه يُطاوعهما رغمًا عنه، ويحملُ خروفًا سمينًا، ويمشي أمامهما.

لم يكد يصلُ إلى صُندوق عربتهما ويفتحه، ويرى صناديقَ السلاح فيه حتى سمعَ صوتَ طلقات الرصاص تنهال عليهم، ليختبئ الجُنديان خلف العربة أمامه، يُطلقان النار بالتبعية باتجاه مصدر الرصاص.

دقيقة مرّت عليه جامدًا مذهولًا، قبل أن يتخذ قراره ويمُدُّ يده في غفلة منهما لصُندوق السلاح يُخرج بندقية، ويُصوّبُ عليهما من الخلف بيد مُرتعشة ليُسقِطهما جُثتين هامدتين في لحظة واحدة.

قتلها بيديه، وهو الذي عاش طوالَ حياته يخشى مُجرد السير في مُظاهرة بها نساء؛ ليهتف مثلهم «يسقط الاحتلال».

يخلعُ قميصَه الأبيض، وكلُّ جسده يرتعدُ يلوّحُ به ليصل إليه المجاهدون، بعد دقائق من أكثر من اتجاه بحيطة وحذر، حتى فطنوا له، ولما فعله.

تهللت وجوهُهم، وتهاوت فوهات البنادق مُتجهين نحوه، يُعانقونه بعد أن سحبوا جُثتي الجُنديين، وأخفوهما خلفَ التبة على جانب الطريق، وحملوا صناديق السلاح بفرح بالغ.

يَشدُّ قائدهم «رابح» على يده، وهو فخورٌ مُمتنٌ له ولبطولته، و«ناجي» لا يجدُ ردًا، وهو بالأساس لا يعرفُ كيف أتته الجرأة ليفعل ذلك:

- هِمّتك معانا بقى يا بطل؛ ننقل صناديق السلاح بعربيتك لبيت الشيخ «مختار».

- الشيخ مختار؟!

- أيوه، في «سيدى عبدالرحمن»، تعرفه؟

- أيوه.. أيوه عارفه كويس.

قالها وهو يَهزُّ رأسه، دون تفكير، وكأنه غير مُدرك ما يحدث، ليجدَ نفسه بعدها يقودُ عربته لبيت الشيخ «مختار»، حاملًا صناديق مُمتلئة بسلاح الإنجليز.

رجلُ البارات ورفيقُ «المقطورات» أصبح بطلًا؛ قتل اثنين من أعداء الوطن، وفعل ما لم يفعله «سعد باشا» ذاته.

كم هي غريبة هذه الدنيا؛ نسيرُ فيها يومًا بعد يوم، ونظنُّ أننا نعرفُ، ونتوقع الغد، ليأتي الغد، وكأننا لم نفكر به، أو نتوقعه يومًا ما.

للمرة الثانيّة، يقف الشيخُ «مختار» أمامه شاكرًا مُمتنًا له خلال أيام قليلة، وكأنه تحوّل من تاجر أو سمسار يبيع التين والماعز لأحد أبطال المُجاهدين الذين يُناضلون من أجل الوطن ليل نهار.

في المساء، جلس في حُجرة الشيخ المريض مُتجهم الوجه، يَحتسي قهوته بصُحبته صامتًا، شاخص البصر، حتى إنه لم يَفطن لنظرات الشيخ المُحدّقة فيه:

– مالك يا ناجي يا ابني؟

– هَه، إيه؟

– ده إنتَ مش هنا خالص.

- لا مُؤاخذة يا شيخ، سرحت شوية.

- ويا ترى سرحت في إللي فات، ولا إللي جاي؟

نظر إليه مَليًّا؛ وكأنّ سُؤاله قد فاجأه، وألجم عقله، أيهما أهمُّ عنده الآن؟، الماضي الذى لم يفعل فيه شيئًا يُذكر ذا أهمية، أو الحاضر الذي يسوقه فيه القدر رغمًا عنه، أو الغد الذي لا يَعرفُ على وجه الدقة ماذا يُريد منه؟:

- والله ما أعرف يا شيخ.

- تِعرف يا ناجي يا ابني، أنا عشت حياتي أربعة فصول زي حال الدنيا؛ الصيف كان هناك في المينا، وأنا شبابي مخِليني برقص وبتنطط ومِش شايل للدنيا هَمّ. والربيع لما قابلت «أم هند» وعِشت معاها أجمل أيام عُمري، والشِّتا لما دِبلت بين إيديا، وسابتني لوحدي ومِشيت، وحسِّيت بالبرد والوحدة، والخريفُ وأدِيك شايفه بعينك، عجوز مريض نايم في فرشته وخُوفه على بنته الوحيدة من بعده بيدبح فيه بسكينة تِلمة.

- ما تقولش كده يا عم راضي، ربنا يدّيك الصحة وتعيش وتفرح بيها وبولادها.

- مِش باين يا ابني هاشوف اليوم ده.

- إن شاء الله هاتشوفه وتفرح بيها.

- هند أمانة في رقبتك إنت وسعيد، دي يتيمة وملهاش حد من بعدي، أبوها كان زرع شيطاني مالوش أخ ولا أخت، وأمها غريبة كانت زي الطيف راحت وماسبتش وراها غير بنت شايلة ملامحها.

- مِن غير ما تقول، هند في عينينا يا راجل يا طيب.

ربتَ الشيخُ على يده، وهو يبتسمُ له ابتسامة رضا وطُمأنينة.

***

من جديد، يجلسُ وحيدًا مُتأملًا فراغ الصحراء من حوله، تتداخل الأفكار في رأسه، بين الماضي والحاضر، بين وجه «نعيمة»، وهي تودِّعه على فراش الموت، وهل كان حقًا يُحبها أو أنه فقط تعاطف معها وتعلق بها كأنها كانت الملاذ الوحيد ليشعر بإنسانيته، وسط كل حياة العبث التي كان يحياها غير مكترث لأي شيء، وبين «هند» التي تعلق بها منذ اللحظة الأولى، وتسلل حُبها لقلبه هادئًا، حتى تمكن منه حَد العِشق والتمنّي.

هل تصبحُ هي ربيعه كما كانت أمُّها ربيع الشيخ العجوز؟، إنها تسكنُ روحه، لاتغادر عقله لحظة واحدة، يراها في كلِّ شيء حوله، وكأنّ كلَّ شيء جزءٌ منها، ومن روحها.

لكنها لا تشعرُ به ولا تبادله نفس إحساسه، لم تبتسم له مرة واحدة من قلبها أو هكذا بدت له، لم يُجرّب العشق الطاهر من قبل، هو بالأساس لم يعرف أيَّ فتاة غير المقطورات ذوات الملابس العاريّة والعبارات البذيئة.

هل مِن المُمكن أنها تحملُ له مشاعر حُب لكنه لا يُدرك؟،إنه لا يعرفُ كيف يُفكر وماذا عليه فعله، يفقد أمامها كل قدراته وجرأته ويثقل لسانه، وتغيبُ الكلمات عن ذهنه، ليبدو كصنم جامد بلا دِماء.

يشعر بداخله بأنها تعرفُ كل ماضيه، تشمُّ رائحة المقطورات في ملابسه، تعرف أنه مُلوّثُ ليس بريئًا مثلها، ماضيه يُكبلُ لسانه.

خطاياه تقفُ بينه وبين قلبها الطاهر كطهارة رمل «بير سكران».

في الصباح وقبل خروجهما لعملهما، كان حضور «بشارة» المُبكر على غير عادته إشارة لحدوث أمر ما، لم تطل حيرة «ناجي»، فقد أمسكه «بشارة» من ذراعه يَجذبُه بعيدًا عن الجميع لينهال عليه باللوم والعتاب بعد أن عرف ما فعله من صديقه الشيخ «مختار»:

- إنتَ اتجننت، إنت جاي هنا تستخبّى من مُصيبتك ولا جاي تِعمل فيها بَطل؟!

- أنا ما عملتش حاجة.

– ما عملتش حاجة؟!، تِقتل اتنين عساكر إنجليز وتقولي ما عملتش حاجة؟!

– اِهدَى بس، وأنا أفهّمك.

– لا تفهمني ولا أفهِّمك، بُص يا ابن الحلال، الراجل المريض إللي مِستأمنك على بيته وبنته وشغله ده، ما يستاهلش منك تبهدله معاك، بطيشك على آخر أيامه.

– يا معلم أرجوك اِفهَمني.

– افهَمنى إنتَ واسمع الكلمتين دول كُويس، خاف على نفسك، وخاف على الراجل إللي مالوش ذنب في طيشك، غير إنه أمّنك على ماله وبيته.

لم يترك له مجالًا للتبرير أو النّقاش، ليتركه ويُغادر وسط دهشة «سعيد» الذي لا يعرفُ شيئًا على الإطلاق.

الأمورُ تزدادُ تعقيدًا من حوله، وهو لا يعرفُ لماذا وقع في كل هذا؟، وهو لم يسعَ له مطلقًا، ولم يكن يتصوره في أبعد نقاط خياله.

مرة أخرى تجبره الأحداثُ من حوله على أشياء لم يَفعلها بإرادته، وإنما ساقها له القدرُ رغمًا عنه.

مِن بعيد، تقفُ «هند» ترمقه بنظرة تساؤل، وتُحدّقُ فيه هذه المرة وهو مِن يتحاشى النظر إليها، أصبح يشعر بعد حديث الشيخ و«بشارة» أن كل أفعاله لن يجني ثمارها سوى تلك البائسة الصامتة، إذ لا يعرفُ في أي شيء تفكر.

مرت الأيامُ مُتشابهة، الوجوم يسيطرُ على ملامح «ناجي»، والفرحة والسعادة حال رفيقه الذي أوشك على الزفاف.

«سعيد» لم يكُن من الأشخاص أصحاب التفكير، مُتعدد الأوجه والأخذ بالأسباب، بل كان فطريًا لأقصى درجة، فقط يفعل ما يُريده ويرغبُ فيه قلبه:

- ألا قولي يا سعيد، إنت إيه اللي خلاك تفكر تتجوز وداد؟

- حبّيتها يا ناجي، حبيتها من جُوه قلبي.

- حَبّيتها إزاي وإنت لحد النهارده ما شفتهاش أصلًا.

- ما شفتهاش، إزاي بقى؟!

- أقصد أقول ما تعرفهاش كويس، وبصراحة هي مش بَاين منها غير عينيها.

- وهو أنا وقعني على سِناني غير عينيها.

- يعني إنتَ هاتتجوزها عشان حبّيت عينيها؟!

- لأ طبعًا، أنا حَبيتها كلها.

- يا ابني إزاي بس وإمتى وفين؟!

- مِن أول ما شفتها يا ناجي يا أخويا، وأنا اتعلقت بيها، بقيت أنام أحلم بيها وأصحى أفكر فيها، كل يوم ببقى عايز أجري عليها، وأفضل أبصلها وأمّلي عينيا منها.

كان «سعيد» يتحدثُ بينما «ناجي» يتذكّر وجه «هند»، ويُفكِّر كيف وقع في غرامِها هو الآخر دون أسباب، ومع ذلك يسأل غيره عن أسباب عِشقِه.

الحقيقة الكبرى على الإطلاق أننا نكره لأسباب ونعشق دون أسباب، الحُب لا يُسبَّب، لكنه يسكننا، دون إرادتنا، ويملك أفئدتنا بكلِّ يُسر وسهولة.

توافد المَدعوونَ على «بير سكران»؛ من كلِّ الجهات، لحضور زفاف ابنة الشيخ «علام»، وقريب الشيخ «راضي» الشاب البشوش الضحُوك، الذي وقع في نفس كل من رآه بالقبول والمحبّة.

الكلّ يُصفِّق ويُغني للعروسين، والنار مُشتعلة في كلِّ ركن تضيء المكان، وتنشر رائحة الشواء، الرِّجالُ يرقصون في صفوف مُتقابلة، وبينهم «سعيد» بجلبابه الأبيض الجديد يرقصُ بفرحة شديدة وسطهم حول مجلس عروسه الجميلة، بثوب زفافها الأبيض، المليء بالنقش المزركش الملون، حتى طغى على لون الفُستان الأبيض.

الحنَّة تُزين يديها بالكامل، حتى الشيخ المريض جلس بين كبار القبائل فرحًا بالزفاف، ولقدوم صديقه المقرب المعلم «منعم» وزوجته لتهنئة ابنهم، والوقوف بجانبه يوم عُرسه.

العَمّة الطيبة حضرت مُحمّلة بالهدايا والملابس الجديدة للعروس، ولم تكفّ عن «الزغردة» مُنذ وصولها.

في ركن النِّساء ظلت أعين «ناجي» تبحثُ عن «هند» بين صفوف الحاضرين، حتى وجدها بردائِها المُميز ذي الألوان الفاتحة، تصفق مثلهم بفرح وترتدي العقد.

نعم، إنها ترتديه بالفعل، لم يُصدّق عينيه، وهو يرى تراقص ظل النار على فصوصه فوق صدرها.

إنها قبلت هديته، وارتدتها من تلقاء نفسها، دبت الفرحة العارمة في قلبه لأول مرّة مُنذ وقت طويل، وظلّ يُصفقُ ويرقصُ وسط الجميع.

كانت ليلة صاخبة تحيطها الفرحة من كلِّ الجهات حتى غادر الجميع، ولم يبق غير أهل البئر وضيوفهم المعلم «منعم» وزوجته.

استيقظ الجميعُ في الصباح على صوت صرخة عالية عرفها على الفور«ناجي»، فقد كانت لـ«هند»، ليقفز من فِراشه مهرولًا ناحية البيت الكبير ليجدها جاثية فوق جسد أبيها تبكي بحُرقة وبجوارها «منعم» يبكي مثلها وأكثر.

مات الشيخُ الطيبُ، رحل صاحبُ البئر بعد أن رأى صديقه، وزوّج «سعيد».

عجيبة هي الدنيا؛ ما إن تعطينا فرحة، حتى تأخذ مُقابلها قطعة من قلوبنا، وكأننا ندفعُ ثمن سعادتنا دون تأجيل أو تأخير.

وقف «ناجي» جامدًا مُتيبسًا، تنسال دموعُه بلا توقُّف، وهو يتذكَّر أمه التي عاد إليها قفزًا ليزف لها خبر حُصوله على وظيفته الأولى، ليرى المشهد نفسه، جسد مُغطى ووجوه باكيّة من حوله.

الألمُ يعتصرُ قلبه؛ وهو يرى العمّة تحتضن الابنة الثكلى، وتخرجها من حجرة أبيها.

نسى «سعيد» فرحته وعروسه، ووقف وسط الرجال يؤدون الصلاة على الشيخ الراحل، ودمُوعه تبلل وجنتيه.

فقد أحبَّه مثلما أحبه الجميع، توارى جسد العجوز العاشق في ثرى الجانب الغربي للبئر في المكان نفسه الذي حدده سابقًا، ليكون مثواه الأخير، الحُزن يُخيّمُ على البئر والسكون يُحيطُ بالمكان.

ولولا وجود «وداد» بجوار «هند» ما استطاع «منعم» وزوجته السفر والعودة إلى الإسكندرية مرة أخرى، بعد أن تعهد له الشابان برعاية «هند» والاعتناء بها، بعد رفضها رفضًا قاطعًا ترك بيت أبيها، والرحيل من البئر بصحبة «منعم» وزوجته.

لا يُوجد ما هو أسوأ من أن تعيش بلا خُطة، بلا هدف، تتأبّط ذراع المجهول، وتسير بجواره في دوائر لا تنتهي.

الابنة الحزينة ترتدي الأسود، وتجلسُ بالساعات في سور البيت، لا تفعل شيئًا سوى التّحديق في الفراغ، حتى إنّ دجاجاتها الصغيرة افترشت الأرض حولها بسكون، وكأنّها تشاركها حُزنها وضيق صدرها.

لم تترك «وداد» طيبة القلب شيئًا يُخفف عنها ولم تفعله، ورغم أن ذلك لم يُجدِ على الإطلاق، فإنها ظلت تحاول وتحاول بلا مَلل.

حلَّ الشتاءُ، وأصبح سُقوط المطر سمة المكان، ليجلسَ «ناجي» خلف نافذة حُجرته ينظر للبيت الكبير، يتابع ضوء مِصباحه الخافت طوال الليل، لا يعرفُ ماذا يفعل وهو يشعر بحبيبته وحيدة حزينة بين جدران البيت.

رحلاتُ العمل أصبحت قليلة؛ بسبب الأمطار ووعورة الطرق، وعدم وجود محاصيل في هذا الوقت؛ ليظلَّ الجميعُ أغلب الوقت في البئر.

المطرُ يسقطُ فجأة من جديد، وتهرول «هند» ناحية الغنم تدخله قاعته، ويتبعها «ناجي» يساعدها، والمطر يغمُرهما لكثافته، ويُبلل الرؤوس والملابس، تكاد تسقط بعد أن انزلقت قدمها قبل أن يمُدَّ يده ليمسك بها ويجذبها نحوه، يضمها إليه يمنعها من السقوط، لتتلاقى الأعينُ من جديد وتنسال دموعُها رغمًا عنها بين ذراعيه:

- ما تبكيش علشان خاطري.

- بقيت لوحدي، مبقاليش حد خلاص.

رمقها بنظرة طويلة وقطرات المطر تنساب من وجهه فوق أيديهما المضمومة:

- تتجوزيني يا هند؟

لم تُجِب، ولم تتفوه بحرف واحد، فقط ظلت مُحدّقة في وجهه، قبل أن تعتدل وتتركه مُتجهة للبيت واضعةً كفها على فمها وهي مُستمرة بالبكاء.

يجلسُ فوق صخرتها بجوار البئر بعد توقف سقوط المطر ينظر إليها، وهي خلف ضباب زجاج نافذتها تتطلع إليه بأعين زائغة وشِفاه مُرتجفة.

يَهبُّ واقفًا يلقي جسده في العربة، ويتحرك بلا هدف والمطر يُعاود السقوط هادئًا ناعمًا، وكأنّ السماء تدمع، وتتساقط دموعها على زجاج العربة.

لا يعرفُ كم مَرّ من الوقت حتى وجد نفسه بـ«سيدي عبدالرحمن»، وقد لفَّ الظلام المكان بالكامل، ترجّل باتجاه بيت الشيخ «مختار» الذي رحّب به وجلسا معًا حول رَكية النار، يستمدان منها الدفء في تلك الليلة الباردة:

- مالك يا ناجي يا ابني، شكلك مِضّايق من حاجة.

- لأ أبدًا يا شيخ، ولا حاجة.

- الله يرحم الشيخ «راضي» أكرمنا بمعرفتك.

- الله يحفظك يا شيخ، إنتم أهل الكرم.

- يا ابني إللي إنت عملته فضل منك ودين في رقبتنا.

- أنا ما عملتش غير الواجب يا شيخ.

- ابن أصول يا ناجي أفندي.

- إنتم ما بتخافوش من الإنجليز يا شيخ؟

- إزاي يا ابني نخاف وإحنا أصحاب الأرض مش هُمّا؟!

- مِش قصدي كده، أقصد مش خايفين يهجمُوا على البلد بسلاحهم ومدافعهم؟

- حصل يا ابني قبل كده من ييجي خمس سنين، وكانت دخلتهم وضربتهم شديدة، لكن أهل البلد والمُجاهدين بفضل الله وكرمه جابوا راسهم الأرض، حتى قائدهم المجحوم «إسناو» مات برصاصنا على أرضنا وسط عساكره ومدافعه.

كان «ناجي» يسمعُ بإعجاب ودهشة، والشيخُ يقصُّ عليه بفخر وعزة قصص أبطال المُجاهدين وشجاعتهم، وكيف استطاعوا هزيمة الإنجليز وتلقينهم درسًا قاسيًا، لولا أنهم في النهاية لجأوا إلى طياراتهم لكسب المعركة.

يشعُر بشيء ينمو بداخله لم يعهده من قبل، شيء يجعله مَشدودَ القامة مُتسارع الأنفاس، يشد على قبضته دون أن يشعر.

تتمكّن منه رغبة قوية لا يعرفُ مصدرها في القتال والعراك، وكأنّه وهِبَ فجأةً القوة والعزيمة.

يستمعُ لقصص نساء قتلهن رصاصُ الإنجليز فيشتعل قلبه غيظًا، وتمرُّ أمام عينيه صورٌ لأمه وهند ونعيمة، وحتى أم هدى ويتخيلهُن ضحايا لطلقات الإنجليز، فتزداد رغبته في قتلهم، ومحوهم تمامًا من فوق الأرض.

أصبح بشكل أو بآخر يشعرُ بالانتماء لمكان لأول مرة بحياته، يشعُر بأنه حارس البئر، وأن عليه حمايته، والدفاع عنه لآخر قطرة بدمه.

فَهم من شيخِه الوقور أن الحرب بينهم وبين عساكر الإنجليز لم تنته بعد، وأنها فقط تحوّلت من معركة واضحة بين طرفين لضربات مُتفرقة

يقوم بها المُجاهدونَ يمينًا ويسارًا لإرهاقهم، والنّيل منهم بأي شكل وفي أى مكان.

قد تجبرك قلة حِيلتك وضعف قوتك على أن تتراجع خُطوة للوراء، لكنّها لا تجبرك إطلاقًا على الاستسلام وترك المعركة.

تكمُن قوة عدوهم في قاعدته البحريّة القويّة التي ينطلقُ منها الجنودُ بسلاحهم وخيولهم ومدافعهم، فهُم يملكونَ ذخيرة لا تنتهي.

عادَ للبئر، بعد أن سمع عشرات القصص من الشيخ المُجاهد، والعربة تتراقصُ به بفعل الأرض المُبتلة، كما تتراقصُ الأفكار برأسه:

لماذا يشعرُ بكلِّ هذا التحوُّل، وهو مَن عاش لنفسِه فقط سنوات، ولم يعنِه أمرُ وطنِه وعَدوِّه بشيء على الإطلاق.

كان يعتبر نفسه طوال الوقت مُجرد عالق بهذا البلد الذي يحيا فيه، لا يشغله حاله عن خمره وغانياتِه، وحياتِه الخاصة المُعادة كل ليلة بالإيقاع نفسِه، والتطابق ذاتِه.

بعضُ أوراق النقود التي يدسها في يد جارته تُريح ضميره، وتجعله ينامُ قرير العين راضيًا عن نفسِه وعن حياتِه بالكامل، دائمًا كان يتحاشى المعارك، أي معارك، مَهمَا كان حجمُها وخصمه فيها.

لم يُحارب «سنيَّة» القوّادة لينتزعَ من مُستنقعها الضحية البريئة «نعيمة»، لم يُحارب زملاء العمل مُقتحمي خصوصيات الآخرين بكلِّ فجاجة، واكتفى بأن تحاشاهم.

لم يُحارب من أجل تبرئة نفسِه من جريمة لم يرتكبها، وفضّل الهُروب دون أن يبذل أيَّ مُحاولة تذكر لإنقاذ نفسه.

حتى «هند» التي أحبها حُبًا كاملًا صادقًا لأول مرة بحياته لا يُحارب من أجل كسب قلبها، يكتفي فقط بانتظار خُطوتها نحوه وكأنه خُلق ليكون مفعُولًا به لا فاعلًا إلى الأبد.

كم وَدَّ لو أنه استطاعَ جذب البُندقيّة وتوجيهها نحو أعداء كل معاركِه؛ مثلما فعل عندما غاب خوفُه وجُبنُه عنه لأول مرة، وأردَى عساكر الإنجليز قتلى، تحت قدميه.

نورُ الفجر يبزُغ وهو على مشارفِ البئر، يشعُر بحرارة جسده رغم بُرودة الجو، إنها ما زالت هناك، تجلسُ في مكانها نفسه، خلف نافذتها، ساكنة هادئة لا تتحركُ، فقط تسندُ رأسها فوق معصمِها، كأنّها راهبة تتعبد بإجلال.

م يتردد، لم يُفكر، لم تثقل خُطوته هذه المرة، اتجه مُباشرةً نحوها بخُطوات سريعة قويّة، وعينُه عليها مُباشرةً، وقف أمامها ومدَّ يده يمسحُ ضباب الزّجاج، وهو يركز عينيه في عينيها الذابلتين المحمرتين من البكاء:

- إنتِ بتعملي كده ليه؟، بتهربي منّي ليه؟!، أنا حبيتك ومَحبتش حد قد ما حبيتك، أعمل إيه علشان أرضيكي؟.

كان صوته مُرتفعًا مُفعمًا بالحماس والصدق، حتى خُيل لها أنه سيضربُ زجاج النافذة بقبضته ويجذبُها نحوه.

مدَّت يدها بضعف واستكانة؛ تفتحُ النافذة وتقف بها تنظر إليه بشجن واضح:

مِين قالك إني كمان ما حبتكش؟!

فتح فمه من فرط دهشته، فقد توقع سماع أي شيء إلا هذه الجُملة.

مدَّ يده يُمسك كفها يضمه بقبضته وهو رافع رأسه ينظر لشفتيها بتدقيق، خشية أن يكون ما سمعه خرج من عقله لا من شفتيها.

- طب ليه ساكتة كل ده؟، وليه بتبعدي عنّي؟

- خايفة، خايفة يا ناجي.

- خايفة مني؟!

- خايفة تسيبني، خايفة بعد ما أترمي في حضنك أصحى في يوم، وألاقيك مش جنبي.

- مِين قالك إن مُمكن أسيبك في يوم أو أتخلى عنك؟!.

- إنتَ ليك دنيتك وحياتك ومِسيرك يُوم ترجع لها.

- إنتِ دنيتي وإنتِ حياتي، إديني فرصة أثبتلك إني أستحق حُبك.

طوَّقها الصمتُ، والأعينُ تتعانقُ رغم الدُّموع المُختنقة بداخلها وقبضة يده تزدادُ قوة كلما شعر برجفة يدها:

- ناجي.. أنا موافقة بس اوعدني ما يجيش يوم وتبعد عني.

انهال بشفتيه على كفِّها قبل أن يضعَ جَبينه فوقها وهو مُغمض عينيه:

- أوعدك يا هند، أوعدك عُمري ما أبعد عنك.

(٨)

عادت الحياةُ تدبُّ من جديد بأرض البئر، وعادت الألوانُ الزاهية تعرفُ طريقها لملابس هند ووداد، حتى الماعز والدجاج أضفت عليها قطراتُ ندى الصباح بريقًا وزهوًا ككلِّ شيء بالمكان.

الفرحة بالقلوب عَدوَى تنتشرُ من حولنا، وتجعلُ كل شيء حتى الجماد يبدو مُنتعشًا نشطًا، تسمعُ له موسيقى، وتحسُّ بحركتِه مهما كان ثابتًا.

لم يكُن الوقتُ مُلائمًا لصُنع حفل للزفاف، وإن كان الجميع تقبّل خبر زواج «ناجي» من ابنة الشيخ الراحل بالفرح والامتنان؛ لأنه لم يتخلَّ عنها، ولم يتركها وحيدة بالمكان، حتى الطيب البشوش «علام» أثنى على تصرفه، وخشيته من أن تطال الألسنُ البنت الوحيدة إن ظلت فترة أطول وحيدة ببيتها بعد رحيل أبيها.

لم تكن «هند» تحتاج لزينة أو ألوان إضافية؛ لتبدو جميلة يوم عُرسها، فقط رداؤها الأبيض وطرحتها البيضاء جعلاها تبدو مُضيئة كأنها مَلاك بلا أجنحة هبط بأرض البئر.

الحفلُ لا يشبه حفل سعيد ووداد، ولكن الفرحة تظهر في كل الوجوه، «ناجي» معها، ووحدهما لأول مرة، زير النساء الذي تذوق العشرات والعشرات يقفُ أمامها حائرًا لا يعرفُ ما يجبُ عليه فِعله.

إنه مَرّته الأولى مع أنثى بريئة، لم يُدنس جسدها من قبل، اعتاد دائمًا أن يتمدد ويشاهد غانيته تتفنَّن في إغوائِه، وفي التعري، هذه المرة عليه البدء ولا يعرف كيف يبدأ؟.

لم يترك نفسَه تسقط في هُوة حَيرته؛ ليرفع عنها طرحتها، وينتشي من سُكْر عينيها، ويُقبّل جبينها ويدها ويمُدُّ يده يُطفئ المِصباح.

نعم، أطفأ المصباح للمرة الأولى في حياته، وليس كما اعتاد مع الغانيات، تتلاقى الأجسادُ بلا خجل، أو مواربة.

تعاقبت الأيامُ، والكلُّ يعيشُ في سعادة بالغة، و«هند» لا تكفُّ عن مُلاحقة «ناجي» بدعابتها التي اكتشفها فقط بعد الزواج.

كانت كطفلة صغيرة؛ لا تكفُّ عن الضحك والدعابة طوال الوقت، وحتى الغناء لم تتوقف عنه؛ ليكتشف روعة صوتها وعذوبته.

«وداد» تفنَّنت في صُنع الطعام الشهيّ لهما طوال شهر كامل، ولم تنس حصة زوجها الأكثر حُبًا للطعام، والذي كان يستهويه الجلوس بجانبها

وهي تصنعه؛ يحاولُ سرقة قطع اللحم خلسة دون أن تراه، ولا يعلم أنها بالفعل تراه، وتدَّعي عكس ذلك حُبًا له ورغبة في إسعاده.

«ناجي» يشعر من داخله بالطهر لأول مرة، كمَن ظلّ طوال حياتِه، يُصلي دون وضوء، ثم تعلمه وواظب عليه لتصح صلاته أخيرًا.

لم يفضل نفسه، ويضع رأسه على ساقيها، بل كان يُفتنه أكثر أن تنامَ على فخذه ويُداعب خصلات شعرها بأنامِله، وهو يتأمّل صفاء وجهها، ويغمر شفتيها بقبلاته.

عادا من جديد لعَملِهِمَا، ورحلاتِهما للقرى من حولهما، ولكن هذه المرة بحماس ونشاط؛ حتى يعودا مُبكرين للبئر.

لم يمُر وقتٌ طويلٌ، وقد اتخذ «ناجي» قراره بألا يتركا البئر، فلا يوجد به غير النساء فقط، ليتفق مع رفيقه على مُكوثه بالبئر، وأن يخرج بالعربة وحده يجمع المحاصيل، ويؤدي «سعيد» عمله في تنظيمها وتهيئتها بالبئر، بمُساعدة هند ووداد.

كان هذا يُرضيه أكثر، ويجعله يشعر بالطمأنينة على أهل البئر أثناء غيابه، كان أكثر ما يُؤرقه في كل رحلاته تلك المرات التي كان يذهبُ فيها

لـ«سيدي براني»، حيث يكثر هناك وجود عساكر الإنجليز بالقرب من قاعدتهم العسكريّة.

كان يذهبُ إليها وحده؛ حتى لا يغلبُه طولُ المسافة ويتأخَّر في عودته في تلك الأيام، ولكن تأتي الرياحُ دائمًا بما لا تشتهي السفنُ، لتتعطل عربته القديمة أثناء عودتِه، ويجد نفسه يقف وحيدًا تُحيطه الرِّمالُ الصماء من كلِّ الجهات.

الوقتُ يمُرُّ وكلُّ محاولاته في تشغيل العربة تفشلُ ليُسدل الليلُ ستاره على المكان، ويُحيطه الظلام من كلِّ الجهات، في تلك الليلة شديدة البرودة الغائب عنها ضوء القمر.

استسلم بالنهاية لقدره؛ ليترك جسده يتمدّد داخل العربة، ويغلبه النومُ وهو لا يعلم أن «هند» رغم الظلام الحالك والبرودة تقف مُرتجفة فوق أعلى نقطة فوق تبة البئر، يعتصر قلبها الخوفُ والقلقُ، تنظر لسواد الطريق تنتظر عودته، لا يعلم كم مرّ من الوقت حتى سمع دويّ طلقات البنادق لينهضَ مفزوعًا يقف خارج عربته، لا يرى شيئًا ولا يعرفُ ماذا يفعل ولا يستطيع تحديد مصدر الطلقات، فقد بدت له تأتي مِن كلِّ مكانٍ حوله.

كاد عقله ينفجرُ من شدة التفكير، فهو الآن يخافُ على حياتِه التي أصبحت ملك زوجته وحبيبته، وليست ملكًا له وحده، بالنهاية قرر ألا يظلَّ مكانه ويُفاجئه عساكرُ الإنجليز بقدومهم؛ وتستقر طلقاتُ بنادقهم الجبانة بصدره.

المسافة الأقربُ له هي في الطريق الشرقيّ باتجاه الخروج من مطروح، إذا تحرك الآن يُمكنه الوصول لاستراحة العجوز «بيلين» بعد أقل من ساعتين، وإذا استطاع الوصول للاستراحة قبل أن يصل إليه عساكر الإنجليز فقد كُتب له عُمرٌ جديدٌ.

لم يكن بالعربة شيء ذو أهمية، سِوى جوالين من الزيتون القديم، فاتخذ قراره على الفور، وسار باتجاه الشرق بخُطوات واسعة ساعده عليها دفعُ الرياح الباردة القارصة له من الخلف، مشى كثيرًا حتى ظنّ أنه قد ضلّ طريقه، لكنه على أيّ حال لم يعُد يسمع صوت الطلقات، وكان هذا كفيلًا بأن يشعره بالهدوء النسبيّ والطمأنينة.

أخيرًا وقبل أن يتمكنَ اليأسُ منه، ويترك جسده المُتعب يسقط أرضًا حتى بزوغ شمس الصباح، لاح له من بعيد تراقص ضوء مصابيح الاستراحة، ليهرول بما تبقى من قوته نحوها بإصرار.

ما إن وصلَ إلى الاستراحة حتى انتفض كلُّ جسده، ليس من شدة بُرودة الجو، ولكن لأنّ بصره وقع عليها، على «إيما» الفاتنة.

لم يطل طرقه على الباب الزجاجيّ للاستراحة لتراه «إيما»، وتقطب حاجبيها من دهشتها، وتفتح له الباب تدخله على الفور ليُلقي جسده فوق أول مقعد يُقابله في الاستراحة الخاوية من أيّ شخص سواه هو وإيما، وزوجها العجوز النائم فوق أريكته الخشبية أمام المدفئة يحتمي بدفء نارها.

جلس يلتقط أنفاسَه وصدره يعلو ويهبطُ بقوة، وهي تحملقُ فيه تبحثُ عن إجابة لحالته:

- مالك، إنت حد بيجري وراك؟!

نظر إليها وما زالت أطرافه ترتجفُ، وبالكاد نطق:

- هاتيلي حاجة سخنة أشربها، هاموت من البرد.

ربتت على كتفِه بتعاطف واضح، وهي تتحدثُ أثناء حركتها، إنت محتاج كاس يدفيك، مِش حاجة سخنة.

ملأت له كأسًا من الويسكي، ووضعتها بين يديه، ليتجرعها مرة واحدة، ثم الثانية والثالثة ليبدأ يشعر أخيرًا بالراحة والهدوء، ويختفي تيبس أطرافه من البرد الشديد.

تحدث إليها، وهو يُشعل سيجارته:

- كنت خايف ما تفتكرنيش.

- معقولة؟! إللي زيك مايتنسيش بسهولة.

رمقها بنظرة طويلة يتفحّصها، من قدمها لرأسها للمرة الأولى منذ وصوله بفستانها اللامع:

- معقول أكون مهم للدرجة دي؟!

- مِش فكرة مُهم، أنا قلتلك مش سهل تِتنسي.

ألقى ببصره على العجوز الغارق في النوم، وهو يغطي كل جسده، حتى رأسه وهو يشير نحوه برأسه:

- لسه زي ما إنتِ، مفيش جديد؟

- ما أنا قلتلك قبل كده، اللي زيي معندهمش فرص أفضل من كده.

طأطأ برأسِه للأسفل، وهو يتذكر حديثهما القديم عندما تقابلا في المرة الأولى، حتى شعر بها فوق كتفه:

- جعان أجيبلك تاكل؟

- مُتشكر، مش جعان.

- مِش هاتقولى إيه إللي جابك دلوقتي في عز البرد ده وبالشكل ده؟.

- عربيتي عطلت، ومَكنش قدامي مكان أقرب من هنا.

نظرت إليه وهي تهز رأسها، وتلوي فمها بضيق:

- كنت فاكراك جاي تشوفني.

- أنا كنت بشوفك كل يوم.

قطبت حاجبيها من الدهشة، وهي تسندُ رأسها على يدها الموضوعة فوق فخذها شبه العارية:

- وده إزاي ده؟

- في خيالي.

انطلقت منها ضَحِكة ماجنة مُرتفعة، كادت أن توقظ العجوز قبل أن يمُدّ يده بتلقائية، يضعها على فمها، ويشعر بشفتيها تلثم بطن يده، وجُفونها ترتعشُ ببطء.

لم يشعر بنفسه وهو يضع شفتيه على شفتيها ليغيبا معًا في قبلة طويلة، قبل أن ينتبه لنفسه فجأة، وينتفض جسده وهو يُبعد رأسه عنها لتهز رأسها، وهي تعضّ على شفتيها، تتفحَّص ملامحه وهروب عينيه من نظراتها القوية:

- إنت اتجوزت، صح؟

نظر إليها مليًا، والارتباك يملأ وجهه:

- عِرفتي منين؟

رجعت بجذعها للخلف وعلى وجهها ابتسامة باهتة:

- بتحبها؟

- طبعًا بحبها.

- وهي؟

- بتحبني.

- يا بختها.

قالتها بصدق شديد، جعله يهب واقفًا يُقاوم خجله وارتباكه:

- أنا.. أنا..

- إنت راجل أيّ سِت تتمناه، يا بخت الست اللي بتحبها.

لم تنتظر منه ردًا، فقد قامت على الفور وأحضرت له غطاءً ثقيلًا، وضعته بجواره:

- نام هنا للصبح، لو حبِّيت تمشي قبل ما «بيلين» يصحى براحتك، ولو حبيت تستناه لحد ما يصحى برضه براحتك، تصبح على خير.

تركته واختفت بداخل الاستراحة وحيدًا، يُفكِّر في زوجته، وحالها الآن بسبب غيابه غير المتوقع، لم يستطع النوم حتى شعر ببزوغ أول ضوء لصباح اليوم الجديد، ليتحرك على الفور مُغادرًا قبل استيقاظ العجوز.

لم يبعد كثيرًا حتى أدار ظهره ليراها حيث توقع، تقف ترنو إليه من خلف النافذة كالمرة الأولى ليرفع لها يده مُلوحًا ويتحرك بسرعة في طريق عودته.

لم يطل سَيره طويلًا عندما جاءت عربة كبيرة من خلفه ليقف فرحًا يلوح لها بحماس.

كما توقع، كانت إحدى عربات نقل المحاصيل التي يعرف أصحابها؛ فركب معهم ليُرشدهم عن مكان عربته.

مرت ساعات كثيرة كاد رأسه ينفجر فيها من شدة توتره؛ حتى وصل بعربته مجرورة لـ«سيدي عبدالرحمن»، ويُصلحها له الأسطى «طه»، وأخيرًا يتمكّن قبل غروب الشمس من العودة للبئر، ليجد «هند» تقف بترقُّب فوق التبة، والتي ما إن رأت العربة قادمة من بعيد حتى تركت التبة مُهرولة باتجاهه، كادت أضلعها تتداخل من شدة عِناقهما، وهي تبكي بين ذراعيه من فرط خوفها عليه:

-كنت هامُوت من خُوفي عليك.

- حقك عليَّ، كان غصب عني.

دفنت رأسها في صدره، كأنها تريد اختراقه والاحتماء بين ضلوعه، وهو يقبل رأسها بحب بالغ: - أنا بحبِّك قويّ، أكتر مما تتخيلي.

- وأنا من غيرك كأنّي ميتة، إوعى تقلقني عليك تاني.

- حقك عليَّ.. حقك عليَّ.

***

جلس الجميعُ في ساحة المنزل الكبير؛ يستمعون بتركيز لناجي، وهو يقصُّ عليهم كل ما حدث منذ خُروجه وحتى عودته، والغضبُ الممزوجُ بالخوف يرتسمُ على وجه سعيد:

- وبعدين يا ناجي، كده الحكاية ما تطمنش.

قاطعته زوجته «وداد» وهي تنظر إليه بتحديق كأنّها تعنفه:

- وهو إيه يعني اللي جرا يا أخويا، ما المنطقة هنا كلها كده، والرجالة كل يوم والتاني تضرب العساكر وتجريهم زي الفيران، يكش بس سي ناجي عربيته عطلت، على رأي المثل «بيت الحزينة مِتعلم بطينة».

لوى «سعيد» فمه باستهجان وهو يشيحُ بيده:

- الرجالة اللي قصدك عليهم دُول على الأقل معاهم سلاح.

قاطعه «ناجي» بحماس كمَن فطن فجأة لشيء مُهم: - صح، إنت صح يا سعيد.

ابتسم «سعيد» وهو يشعر بانتصار:

- قول لها يا ناجي يا أخويا.

استطرد «ناجي» كلامه بحماس واضح:

إحنا لازمنا سلاح، مِش هاينفع نمشي مِن غيره من هنا ورايح.

فتح «سعيد» فمه مُندهشًا وهو يلمح ابتسامة «وداد» الساخرة على وجهها:

- إنتَ هاتعوم على عُومها وتقولي نشيل سلاح، إنت كمان.

- مفيش قدامنا غير كده، ولا عايزنا نفضل نجري زي الفيران؟

نهضت «هند» التي لم تتفوه بحرف واحد، لتختفي بداخل منزلها وزوجها يُتابعها بدهشة.

انتزعه منها صوت «وداد» الحاد:

- عَفارم عليك يا سِي ناجي، أهو كده الكلام.

ضرب «سعيد» كفًا بكف وهو يَحتد عليها:

- لا حول الله يا رب، إنتِ يا ولية عايزة أي حريقة والسلام؟!

- يا أخويا أنا الحَق عليَّ إني خايفة عليكم، وعايزه أطمن إنكم مِش لقمة سهلة.

- إنتِ يعني فكراني «أحمد عرابي»، لما أشيل بندقية هاخرّج الإنجليز من البلد؟!

- لا يا أخويا مش هاتخرج الإنجليز من البلد، بس على الأقل هاتخرج نفسك من أي ورطة تقع فيها.

قطع حديثهما قدوم «هند»، وهي تحملُ بندقية بين يديها، وتقفُ أمامهم وهي تنظر مباشرةً لأعين «ناجي» وعلى وجهها ابتسامة زهو واضحة.

نهض «ناجي» ليمُد يده يحملُ منها البندقية، وهو يتفحّصها ويفتح ماسورتها ثم يُغلقها، ويضرب طلقة فارغة في الهواء، قبل أن تخرج «هند» من بين ملابسها كيسًا من القماش وهي تضعه في يدها:

- وا دِي الذخيرة كمان.

- جبتي منين كل ده؟!

- إنت فاكر إن أبويا الله يرحمه كان هايسيبنا نقعد هنا لوحدنا من غير حاجة زَي دي؟

ربت على كتفها، وهو يهز رأسه مُتفهمًا قبل أن يسمع صوت «وداد» الملىء بالحماس:

- أيوه كده يا سِي ناجي، وعلى رأي المثل «بعد نومك مع الجديان بقى ليك طلة على الجيران».

ينظر إليها «سعيد» والضيق يظهر عليه:

- وها نبدأ الحرب إمتى يا شجرة الدر؟

- أهو ده اللي إنت فالح فيه، نأورة وبس.

يضربُ «سعيد» كتفها بكتفه العريض مُداعبًا: فالح في النأورة بس؟!

تضحك بشدة وهي تخبئ فمها بيدها خجلًا: لِم نفسك يا راجل.

يضحك الجميعُ على دُعابتها قبل أن تنهض «وداد» مُهرولة، وهي تغادر المنزل من شدة خجلها، ويتبعها زوجها «سعيد» وهو يُلوّح بيده لصديقه:

تصبحوا على خير بقى يا جماعة، وحمد الله على سلامتك يا صاحبي.

أغلق «ناجي» باب المنزل ثم احتضن «هند» بقوة قبل أن يحملها بين ذراعيه ويدخل بها لغرفة نومهما.

(٩)

لا يعرفُ «ناجي» كم مَرّ من الوقت، قبل أن يسمعَ صوت طرقات قويّة مُتتابعة على باب البيت؛ ليهبّ مفزوعًا، هو وهند، ويطلب منها الانتظار؛ حتى يرى مَن بالخارج.

بمُجرد أن فتح الباب وجد أحدهم يسقط أمام قدميه مَغشيًّا عليه؛ ليقوم بحملِه دون تفكير إلى داخل المنزل ويضعه فوق الأريكة الكبيرة، وهو يصيحُ مُناديًا:

– هند.. هند.

تُهرولُ «هند» إليه، وهى تلفُّ نفسها بشالها الكبير، والفزع والدهشة يملآن ملامحها:

– في إيه يا ناجي؟!، مين ده؟!

– مِش عارف، بسرعة رُوحي اندهي لسعيد.

تهرول «هند» نحو منزل «سعيد»، بينما هو يتفحّصُ الرجل، ويتفحص جسده؛ ليتأكد من خلوه من أي إصابات بالغة، وهو لا

يستطيع تبيُّن ملامحه من شدة اتساخه، فقد يبدو كَمَن سقط عدة مرات في الوحل.

انتبه «ناجي» فجأة؛ ليترك الرجل ويخرج مُهرولًا؛ يتفقد حول المنزل ليرى ما إذا كان يوجد أشخاصٌ آخرون مع الرجل؛ أو أحد يتتبعه، وهو في حَيرة شديدة لا يستطيع التوقع أو الاستنتاج.

عاد لمنزله بعد أن قام بجولة كاملة حول المكان؛ ليقابل هند وسعيد ووداد أمام البيت، ويدخلون جميعًا، ويلتفون حول الرجل:

- مِين ده يا ناجي؟!

قالها «سعيد» وهو ينظر إليه بدهشة واضحة:

- مِش عارف، الباب خبّط وفتحت لقيت ده قدامي.

تدخلت «وداد» التي لم يكن يظهر عليها الفزع مثلهم، بل قد كانت تبدو هادئة لأقصى درجة:

- هاتي يا هند فحل بصل، وكوبّاية مَيّه بسرعة.

- لم تفكر «هند» ثانية واحدة، لتهرول مُنفذة طلبها، وتعود في لمح البصر تحمل بصلة وكوب ماء، تقدمهما لها، ولكن يد سعيد كانت أسرع،

ليمسك كوب الماء يتجرعه بنهم، حتى إن الماء كان يتساقط من فمه مرورًا برقبته الغليظة، قبل أن يستقر فوقَ صدره العريض.

تناولت «وداد» البصلة وقامت بضربها بقبضتها على الفور؛ لتقسمها إلى نصفين بعد أن تهشمت رغم صلابتها الأولى، وتضع نصفها في كف «ناجي»:

- شمِّمّهاله يا سِي ناجي.

اقترب «ناجي» من الرجل ووضع نصف البصلة أمام أنفه، وهو يُحركها يمينًا ويسارًا، حتى شعر بأن الرجل بدأ يستعيدُ وعيه، ويفتحُ عينيه ببطء.

أحضرت «هند» كوب ماء جديدًا، تناوله منها سعيد، وألقاه على وجه الرجل؛ ما جعله ينتفض ويستعيد وعيه بالكامل، ويُساعده «ناجي» في الاعتدال في جلسته:

- إنتَ مين؟

- إنتَ مِش عارفني يا ناجي أفندي؟!

- لا والله، مِش واخد بالي.

- أنا سيد.

- سيد مِين؟

- سيد وساخة.

تفلتت ضَحِكة من فم «وداد» رغمًا عنها، قطعها صوتُ «سعيد» الحاد:

- سيد إيه؟!

- سيد وساخة، اسمي كده يا أفندي.

يرمقهم «ناجي» بنظرة غاضبة ويستطرد حديثه مع الرجل:

- لا مُؤاخذة، مش واخد بالي.

- أنا من رجالة المعلم «بشارة»، إحنا اتقابلنا كذا مرة قبل كده.

- أيوه.. أيوه، ما تأخذنيش أصل شكلك مِتبهدل ومَخدتش بالي.

- ولا يهمّك يا ناجي أفندي.

- قُولي إيه إللي حصل، ومِين إللي عَمل فيك كده؟

جلس الجميعُ حول الزائر الغريب يستمعون لقصته؛ وهو يتناول كوب الشاي الساخن الذي أعدته له «هند»، وكيف هاجمتهم بالأمس مجموعة من عساكر الإنجليز، وهم في طريق عودتهم إلى الإسكندرية، وأرادوا أخذ حمولة العربة منهم بالقوة، وعند رفضهم ومُحاولتهم الهروب منهم قاموا بمُطاردتهم، وأخذوا العربة والمعلم بشارة معهم، وقتلوا أحد مُساعديه، بينما استطاع هو الهرب منهم، والوصول إلى بير سكران؛ لطلب مُساعدتهم.

بسهولة استطاع «ناجي» استنتاج أن ما حدث لهم هو ما سمعه بالأمس، من صوت ضرب نار كثيف، لكنّه على أيّ حال لم يكن من الممكن أن يتوقع أن يكون المعلم «بشارة» هو ضحيتهم.

هو بقدر ما يعرفه عن المعلم يعرفُ بالتأكيد أنه ليس بطلًا أو مُناضلًا، وأنه يملك من الدهاء ما يجعله يستطيعُ التعامل في مثل هذا الموقف.

لم تطل دهشته طويلًا بعد أن أفهمه «سيد» أنهم اعتادوا مثل هذه المواقف من الإنجليز، لكنهم منذ وصول قائدهم الجديد أصبحوا أكثر وحشيّة وإجرامًا، وأنهم لم يقبلوا بما عرضه عليهم المعلم من جزء من حمولة العربة، وأرادوا أخذها بالكامل، مما أصاب المعلم بالغضب

والجنون، فهو بكل تأكيد لم يكن يقبل بسهولة ضياع حمولة ضخمة كلفته جزءًا كبيرًا من أموال تجارته.

- يعني المعلم فين دلوقتي؟

- أنا شفتهم بعيني وهما نازلين فوقه ضرب وربطوه وخدوه هو والعربية.

- ربت «ناجي» على كتفه بمودّة:

- ما تقلقش، هانشوف حل أكيد.

قالها «ناجي» وهو يتذكر حديثه مع المعلم «بشارة»، وكيف وبّخه عندما علم بأمر قتله اثنين من عساكر الإنجليز.

بالتأكيد هو الآن نادمٌ على ما قاله له، بعد أن تذوّق ظلمهم بنفسه.

جهزوا للرجل الهارب مكانًا بجوار المنزل؛ ليمكث فيه بعد أن قدموا له الطعام وتركوه؛ ليرتاح بعد ما مر به على مدار يومين.

لم يستطع أحدهم النوم مرة أخرى، وجلسوا جميعًا يتحدثونَ ويتناقشون فيما سمعوه من «سيد».

كان واضحًا من كلام «ناجي» أنه اتخذ قراره بالسعي؛ لمُساعدة المعلم «بشارة».

لم يَبدُ الحماس على أحد سِوى «وداد» التي كانت توافق «ناجي» في كل كلمة بحماس بالغ، بينما ترمقها «هند» بنظرة حنق من حين لآخر.

قبل الفجر بقليل، عاد «سعيد» وزوجته إلى بيتهما، بينما جلس «ناجي» بجوار المدفئة؛ ينفث دخان سيجارته وهو يُحدّق في الفراغ، وبيده كأس نبيذ مما يجلبه له المعلم السجين،

اقتربت منه «هند» وحضنته من الخلف، وهي تسندُ رأسها على كتفه بخوف:

- ناوي على إيه يا ناجي؟

- مقدرش أتخلى عن الراجل إللي ساعدني آجي لحد هنا، وإللي لولاه مش عارف كان زماني فين، مِش بعيد كان زماني دلوقتي بَداله، مسجُون زَيه في جريمة ما عملتهاش.

- هو صحيح ساعدك، لكن الوضع مُختلف.

- مِش مُختلف ولا حاجة، لو هو كان بإيده يختار وهو بيقرر يساعدني أنا مِش بإيدي أختار زيه.

- ليه؟!

- لأني بَرُد جميل ودَين في رقبتي.

أطرقت برأسِها لأسفل، وهي تتحدثُ بصوت خفيض مُفعم بالحزن:

- طب وأنا؟

- إنتِ إيه؟!

- مافكرتش فيّا؟

- ليه بتقولي كده؟!

- علشان خايفة عليك؟

- إنتِ شيفاني رايح أحارب الإنجليز؟!، أنا قلت هاحاول أساعده مِش أكتر.

- يبقى توعدني.

- أوعدك بإيه؟

- ماتضرش نفسك ولا تحرق قلبي عليك.

- أخذها بين ذراعيه، وهو يضمّها بقوة، ويلثم رأسها بشفتيه.

- إنتِ عمرك ما سألتيني عن حياتي زمان.

- رفعت رأسها وهي تحدق فيه بشدة:

- مِش عايزه أعرف حاجة كانت قبل ما أقابلك وتقابلني.

ربت على كتفها وأعاد رأسها فوق صدره، وهو يستطرد:

- أنا عِشت طول حياتي أناني وجبان، ما بفكرش غير في نفسي، وعايش لنفسي وبس، لحد ما جيت هنا وشُفتكم وفهمت قد إيه أنا كنت ظالم روحي.

- إنتَ عايش علشاني وعلشان بيتنا وحياتنا.

- مِش كفاية.

- لأ كفاية.

- الحَاجَة الوحيدة اللي اتعلمتها من ساعة ما دخلت السجن وقابلت سعيد إن مَحدش يقدر يعيش لوحده،

مهما كنا أقويا بتيجي علينا لحظات لازم حد معانا، لازم حَد في ظهرنا.

- يا ناجي افهم بقى، أنا ماليش في الدنيا دي كلها غيرك.

- وأنا كمان ماليش غيرك.

- بس إنتَ مابتخافش عليَّ زَي ما بخاف عليك.

- مين قال كده؟

- إنت لو بتخاف عليّ كنت تحافظ على نفسك علشان ماتسيبنيش لوحدي.

- إنتَ عارف أنا كنت عاملة إزاي إمبارح من قلقي عليك؟

- عارف، لأني كنت زيك وأكتر من قلقي عليكِ وأنا عارف إنك مرعوبة عليّ.

- إنت عنيد ودماغك ناشفة.

- أنا عايز أبقى إنسان، عايز أبقى راجل، ومِش كل حاجة أهرب منها.

- دي مش أزمتك إنت علشان تهرب.

- وقتل المعلم في البار برضه ما كنش أزمتي.

- يعني مُصمّم؟!

- قلتلك ما تخافيش.

- لأ هاخاف، ومِش هاسامحك لو حصلك حاجة.

- لو حصلي حاجة هاتبقى راسك مرفوعة، لإنك اتجوزتي راجل تحكي عنه إنه ماكنش ندل وجبان.

- وضعت أناملها فوق شفتيه وعيناها اغرورقتا بالدموع:

- اسكُت ما تكمِّلش.

قالتها وهي تضمه بكلِّ قوتها وتقبل كل ما في وجهه ورأسه، وهو يُزيد من عناقه إياها، ويُدخل أصابعه بين أصابعها ليتشابكا معًا بقوة.

***

في الصباح كان «ناجي» يدفع «سعيد» المُتباطئ ليركب معه العربة في طريقهما إلى «سيدي عبدالرحمن»، لمُقابلة الشيخ «مختار».

لم يكُن يعرفُ على وجه الدقة، ماذا يفعل لمساعدة المعلم «بشارة»، لكنه كان على ثقة أن البداية لا بد أن تكون من عند الشيخ «مختار»؛ فهو رجل ذو شأن، وعلى صلة بالمُجاهدين ولا بد أن عنده طريقة ما للمُساعدة.

يعرفُ أن «سعيد» ليس من هذا النوع الذى يُقدم على الأمور الصعبة بصدر رحِب، لكنه على يقين كامل أنه لن يتخلى عنه، ويتركه وحده في أمر مُهم كهذا.

كلاهما قرر أن هذا هو مكانه، وهذه هي حياته، «ناجي» لن يترك زوجته ويعود لحياته القديمة مرة أخرى، وقد أحبَّ المكان، وتكيّف معه تمامًا، كأنّه ولد وعاش فيه من البداية، وهو لم يجد أي شيء يَجذبُه للعودة مرة أخرى لحُجرته فوق السطح، أو لوظيفته النمطيّة التي يكرهها منذ اليوم الأول.

حتى مُجونه ورحلاته لبيوت «المقطورات» لم تعد تعنِه على الإطلاق.

وجد كلَّ ما يبحثُ عنه بين ذراعي «هند»، التي لم يشبه جمالها أيّ امرأة أخرى قابلها يومًا ما.

حتى «نعيمة» التي يزوره طيفُها من حين لآخر، أو يراها في منامِه، لم يعد يشعر تجاه ذكراها بشيء غير الشفقة والرِّثاء.

لفترة كان يعاني من الغضب العارم، ويريدُ إثبات براءته من جريمة لم يرتكبها، لكنه بعد أن عاش في البئر، أدرك أنه لا يوجد هناك من هو بحاجة لإثبات براءته أمامهم.

لا يوجد هناك أحدٌ بالمَرّة يَعنيه أمر «ناجي» أفندي ساكن حجرة السطح بجوار الأرملة الطيبة «أم هدى»، ودجاجها الذي لا يكفُّ عن الصياح ليل نهار.

في حضرة الشيخ «مُختار» جلس «ناجي» وصديقه وهو يقصُّ عليه هو وبعض رجاله ما حدث للمعلم «بشارة»، وأنه في النهاية على أغلب الظن سجينٌ الآن لدى الإنجليز.

كان الشيخ يستمعُ إليه بتركيز واهتمام؛ ولم يُقاطعه إطلاقًا حتى انتهى من حكايته.

الشيخ يعرفُ المعلم جيدًا منذ سنوات، فهو من يشتري منهم المواشي والزرع، ويجلب لهم ما يحتاجونه من الإسكندرية.

لكن ما لم يكن يعرفه «ناجي» وصديقه حتى هذه اللحظة أن المعلم لم يكن يتجنّب الإنجليز كما يعرفون، ولم يكن مجرد تاجر أو سمسار بينه وبين الإنجليز مصالح وتجارة، حتى ألقى الشيخ سؤاله بشكل عفوي إليهما، وكأنه أمر طبيعي:

- العربية كان فيها سلاح؟

- سلاح؟! سلاح إيه؟!

قالها «ناجي» باستغراب وهو ينقل بصره بين الشيخ و«سعيد» الذي لا يبدو عليه الفَهم.

- سلاح يا ابني، مِش عارف السلاح؟!

- عارف السلاح طبعًا، بس بيتهيألي المعلم أكيد بيبقى معاه سلاح تحسبًا لحَد يهجم عليه ولا حاجة في الطريق.

- ضحك الشيخ حتى بان ضرسه المخلوع في جنب فمه:

- مقصدش كده طبعًا، أقصد صناديق سلاح وذخيرة.

- تحدّث «سعيد» لأول مرة منذ وصولهما، وهو يصيحُ بدهشة:

- صناديق سلاح، يا سنة سُوخة عليّ وعلى إللي جابُوني.

- نَهَره «ناجي» وهو يرمقه بنظرة غضب:

- اسكُت إنتَ دلوقتي.

- تقصد إيه يا شيخ، أنا مِش فاهم حاجة.

- شوف يا ناجي أفندي، بقى المعلم بشارة كان هو حلقة الوصل بينا وبين إخوانا في إسكندرية من جهة وبينا وبين إخوانا في ليبيا من جهة تانية، من بعد اللي حصل في العَركة الكبيرة في «وادي ماجد» وبعد ما قتلنا كبيرهم الجنرال «إسناو» والإنجليز إتجننوا وما سكتوش غير لما ضربونا بطياراتهم ومدافعهم.

رجالة ماتت، وهُمّا أسود شايلين سلاحهم، وغيرهم عدموهم الإنجليز الأوساخ بعد ما قبضوا عليهم،

ومن ساعتها والحركة بقت محدودة، ولولا كام واحد قلبهم ميّت زي المعلم بشارة مُكناش عرفنا نتحصل على سلاح.

- كانت الدهشة تعتصرُ رأس «ناجي» تجعله يشعر بالدوار، وهو يستمع للشيخ «مختار» ويفتش في عقله عن صور المعلم «بشارة» عله يجد ما يجعله يُصدّق كلامه دُون جدوى.

لم يكن يظهر إطلاقًا على المعلم أي شيء من ذلك، حتى إنه كان في قرارة نفسه يحسبه رجلًا بلا ضمير، لا يعنيه شيء غير شهوته وجمع المال:

- إنتَ مُتأكد يا شيخ من الكلام ده؟!

- يا ابني أنا فاكرك عارف.

- أنا معرفش أي حاجة من كل ده.

- غريبة!

- طب معنى كلامك كده إن الإنجليز عرفوا حاجة عن المعلم بشارة وعلشان كده قبضوا عليه.

- جايز، وجايز يكونوا مِسكوه صُدفة علشان يسرقوا منه إللي في العربية.

- يبقى لازم نِعرف من الراجل بتاعه إللي جالنا البير.

- مِش هاتفرق دلوقتي يا ابنى، المهم إحنا لازم نتحرك بُسرعة علشان نعرف المعلم فين، وحصل له إيه؟

- يعني هتساعدني يا شيخ؟

- أساعدك؟!

كلام إيه ده يا ناجي أفندي، أنا وكل مشايخ القبايل وكل عيّل صغير في مطروح مش هايغمض لنا جفن لحد ما نطمن على المعلم بشارة.

ده راجل مَجدع، وابن بلد وده حقه علينا، مش فضل مِننا لا سمح الله.

غادر «ناجي» وصديقه «سيدي عبدالرحمن» عائدين للبئر مرة أخرى، وهما غير مُصدقين ما سمعوه من الشيخ الكبير عن المعلم «بشارة».

لم يكن يخطر على بال أحدهما أن الرجل الثرثار كثير الدعابة، يكون مُناضلًا مُجاهدًا؛ يحملُ على عاتقه أمرًا ثقيلًا كهذا.

الآن فقط، فَهم «ناجي» لماذا عادوا في رحلتهم الأولى للاستراحة وقطعوا رحلتهم عندما علم المعلم بوجود كمائن للإنجليز بالطريق؟، ولماذا كان حريصًا كلَّ الحرص ألا يكون لهم أي صلة بالمُجاهدين؟.

بالتأكيد كي لا يعرفوا عنه شيئًا قد يكون عائقًا له في عمله.

كلُّ يوم يمُرُّ عليه في هذا المكان يُدرك فيه «ناجي» شيئًا جديدًا، لم يكن يَعرفه من قبل.

كم يشعر بتفاهة حياته من قبل، وكأنّ ما فات لم يكن حياة.

على أيّ حال، الحياة الحقيقيّة هنا فوق رمال هذا المكان المرويّة بدماء رجال لم يمنعهم شيء عن الدفاع عن أرضِهم وحياتِهم.

يسيرُ بالعربة بأقصى سرعة لها، يدفعُه فضوله للقاء «سيد»، وسؤاله عن كل شيء يجهله عن أحداث ليلة الأمس، وعن حياة المعلم «بشارة» التي أيقن أنه لا يعرفُ عنها إلا أقل القليل.

عند وصولهما، لم ينتظر «سعيد» كثيرًا، فهو يشعر بالجُوع ومُتلهف على طعام «وداد» الشهيّ، بينما «ناجي» يبحث بعينيه عن «سيد» حتى إن «هند» شعرت بتوتره الواضح فاقتربت منه، وهو لا يكاد يشعر بها:

- مالك يا ناجي؟!

- ولا حاجة، فين سيد؟

- ما خرجش من الصبح.

أشار إليها برأسه وهمَّ بالتحرك قبل أن يُوقفه صوتها القلِق:

- مِش راح تاكل لقمة الأول؟

أشار إليها بيده من الخلف، دون أن ينظر لها أو يتوقف:

-بعدين.. بعدين.

لم يستغرق الأمر أكثر من ثوانٍ، حتى أصبح أمام «سيد» الذي كان يجلس أسفل النافذة، شاخصًا بصره ينفثُ دخان سيجارته، وهو لا يزال بنفس حالته الرثة التي كان عليها عند حضوره، حتى تراب الوحل العالق بوجهه وجبينه ما زال كما هو، يتخلله بعضُ خطوط مُتعرجة مُتقطعة من الدم المُتجلط.

بمُجرد أن شعر «سيد» بوجود «ناجي» فوق رأسه هبّ واقفًا وهو يُحاول جاهدًا رسم شبح ابتسامة ترحيب على وجهه رغم حالة الوجوم التي كانت عليه قبل لحظات:

- إزيك يا سيد؟

- فضل ونعمة يا ناجي أفندي.

- إنت عامل ليه كده؟ ما غسلتش وشك حتى؟

- لا مُؤاخذة يا ناجي أفندي، ما حبّيتش أخرج لما خدت بالي إنك خرجت إنت وسعيد أفندي الصبح.

أومَأ «ناجي» برأسه مُتفهمًا وألقى جسده فوق مقعد خشبيّ قديم، وأخرج علبة الدخان ليشعل سيجارة محاولًا أن يبدو هادئًا قدر المستطاع:

- ألا قُولي يا سيد؟.

- أؤمر يا ناجي أفندي.

- هي العربية لا مُؤاخذة كانت مِحمّلة إيه؟

بدا «سيد» مُضطربًا مُتلعثمًا وهو يسحقُ سيجارته بشفتيه الزرقاوين، يسحبُ نفسًا منها جعلَ شعلتها تكاد تحترق:

- هايكون فيها إيه؟! بضاعة.

- بضاعة وبس؟

- تقصد إيه يا ناجي أفندي؟!

- يعني ما كانش فيها سلاح.

هبَّ «سيد» واقفًا مشدوهًا يُحدّق بشدة في وجه «ناجي»، الصارم قبل أن يترك جسده يسقط مرة أخرى باستكانة، ويُلقي سيجارته المُحترقة من النافذة، وهو ينظر للأسفل وصوته أكثر هدوءًا وانخفاضًا:

- أيوه كان فيها سلاح.

إجابته السريعة أربكت «ناجي»، ليصمت لثوانٍ قبل أن يقرر أن يستغل الموقف؛ للتأكد مما سمعه من الشيخ «مختار»:

- يعني المعلم كان بيتاجر في السلاح؟

تخلى «سيد» عن هُدوئِه المُؤقت مرة أخرى، وهو يقفُ مشدودًا، ويصيحُ بصوت حاد:

- المعلم راجل ابن بلد، مِش تاجر سلاح.

- طب اِهدى كده، واقعُد احكيلى كل حاجة من الأول وواحدة واحدة.

كان «ناجي» يستمعُ إليه بتركيز شديد، دون أن يُقاطعه، ولو مرة واحدة.

المعلم لم يكن صاحب ثأر شخصي مع الإنجليز؛ فلم يقتلوا له عزيزًا أو يسجنوا له صديقًا.

هو فقط كان مُحبًا لبلده، ناقمًا على وجودهم فوق أرضها؛ يسرقونَ خيرها ويُحاربون أهلها.

لم يكن له زوجة أو أبناء،

يقضي مُعظم وقته مُتحركًا بين الميناء، والأسواق والمزارع.

لا يعرفُ راحة، ولا يبتغيها ولا يُرهقه شيء أكثر من الجلوس بلا حركة.

كلُّ شيء بدأ منذ قرابة الخمس سنوات، عندما حدثت المعركة الكبيرة بين المُجاهدين والإنجليز، ووجد المعلم نفسَه حبيسًا في الغرب على حُدود ليبيا، بينه وبين الإسكندرية.

مئاتُ المُجاهدينَ يحملونَ السلاح ضد الإنجليز، وإطلاق النار لا يتوقف ليل نهار.

الغِلُّ والحِقدُ كانا يُسيطران على عساكر الإنجليز، وعلى قائدهم «إسناو» حتى تقدم بنفسه حيث يوجد النساء والأطفال، وبالطبع معهم المعلم «بشارة» المُختبئ الذى لا يعرفُ حَملَ السلاح.

دار القتالُ وصوّب العساكرُ بُندقياتِهم نحو النساء ليسقطن قتلى، وهُن واقفاتٌ بكلِّ جسارة يحمون المصابين والأطفال بأجسادهن؛ حتى استطاع المُجاهد «أبوزير السمالوسي» المُصاب التحامل على نفسِه والزحف بجسده فوق الرّمال الساخنة تلهب جرحه، ويقطر دمه من خلفه يرسم خطًا مُتعرجًا لم تستطع الرمال محوه، وإنما بقي متجلطًا شاهدًا

على مُعاناته، حتى أصبح في مُواجهة القائد القبيح «إسناو»، وصوّب بندقيته نحوه ليسقطه من فوق حُصانه قتيلًا، وتنهالُ طلقات البنادق التي تحملها النساء فوق رؤوس العساكر ليفروا كالفئران.

المَعاركُ التي طرفاها شجاعٌ لا يخافُ الموت يدافعُ عن عِرضه وأرضه، وآخر جَبانٌ يصرخُ كالأطفال، ويفِرُّ من أرض المعركة، محسومة بكل تأكيد لصالح الشجاع المُحصن بإيمانِه وبحقِّه في وطنه وأرضِه.

لولا أن جُنّ جنونُ الإنجليز وهجموا بطائراتهم الحربيّة على رجال بسطاء، يحملونَ البُندقيّات فقط، ليتحول الأمر لصالح القوة الغاشمة ويُعيد الإنجليز فرض سطوتهم على المكان مرة أخرى.

مِن وقتها، والمعلم لا يوجد شيء أهم عنده من مُساعدة ومُساندة المُجاهدين في حربهم، التي لم تتوقف ضد الإنجليز، فيأخذ على عاتقه مُهمّة نقل السلاح والذخيرة بين قبائل المُجاهدين.

وأصبح هو حلقة الوصل بين رجال الإسكندرية والمُجاهدين من جهة وبين مُجاهدي مطروح ومجاهدي «ليبيا» من جهة أخرى.

كانوا يستخدمونَ عربة نقل البضائع في نقل السلاح، فيضعون الصناديق في بطن العربة، ومن فوقها أجولة الزيتون والثمار، وبعض الورقات المالية، وزجاجات الخمر.

وبقدرة المعلم على مُجاراة العساكر كان يستطيع المرور والعبور، دونَ أن ينتبه لهم أحدٌ، ويعرف حقيقة ما يُوجد بالعربة.

حتى في تلك الليلة المشؤومة، عندما قرروا أخذ كل الحُمولة؛ لم يكن أحد منهم يعرف أن العربة بها صندوقان من البنادق.

هم فقط أرادوا سرقة البضائع، وكادوا ينجحون في الهروب منهم، لولا أن تعثرت العربة ببركة كبيرة من الوحل، وتتوقف ليلحق بهم العساكر، وتطال رصاصاتهم رفيقه، ويسقط قتيلًا، بينما استطاع هو الهرب، وشاهدهم وهم يلقون القبض على المعلم «بشارة».

لا شك إذًا أنهم عرفوا بعد تفريغ حمولة العربة أن بها سلاحًا، ولا شك أيضًا أنهم لن يتركوا المعلم، إن بقي على قيد الحياة من الأساس.

هم الآن في انتظار الأخبار من الشيخ «مختار»، ليعرفوا مصير المعلم «بشارة» وبناءً على ما سيصلهم من معلومات يقررون خُطوتهم القادمة.

لم يُغادر القلقُ وجه «هند» منذ ثلاث ليال، حتى إن اضطرابها بدا واضحًا عليها بشدة، وهي تعِدُّ الطعام لتسقط من يدها الأواني عدة مرات، وتتعثر دون سبب، وتكاد تسقط قبل أن يقفز «ناجي» مُمسِكًا ذراعها يُنقذها من السقوط:

- مالك يا هند؟

تنظر له بتحديق بأعين مُرتجفة، قبل أن تلقي جسدها فوق الأريكة، تحت النافذة وتدفنُ رأسَها بين ذِراعيها وتتركُ نفسها لنوبة بُكاء بصوت مسمُوع رغم رقتها.

يقتربُ منها ليجذبَها نحوه، يضمها دون أن ترفع وجهها إليه، وتستمر في بكائِها:

- ليه كل ده؟!

- ترفعُ رأسَها، وهي تحاولُ التماسك، وتمسح دموعها بكفها بعصبية:

- مِش عارف مالي؟!

- طب اِهدي بس، وفَهّميني.

- أهدَى، طب إزاي؟!

- أيوه، اِهدي وفهّميني جَرالك إيه؟

- عايز تِعرف جرالي إيه؟ أنا هاقولك جرالي إيه،

جَرالى إنّي بقيت طول الوقت مرعوبة وخايفة،

طول الوقت قلبي مقبُوض والخوف بينهش فيَّ؛ تُخرج في مرة وما تِرجعش.

- خايفة أموت، ولا خايفة أسيبك وأرجع مصر؟

- حدّقت في وجهه بغضب قبل أن تجذبَ ذِراعها من يده، وتتحرك مُبتعدة عنه ليلحق بها، وهو يُداعبها مُحاولًا تخفيف وطأة الحديث بينهما:

- اصبري يا مجنُونة، أنا بضحك معاكي.

- هي الحاجات دي فيها ضحك؟!

- دي وصيتك لأبويا الله يرحمه إنك تحافظ عليَّ وتحميني.

- وأنا قصّرت معاكي في حاجة لا سمح الله.

- أيوه قصّرت، كل يوم مشكلة وكل يوم حكاية.

مَرّة واحد مُصاب تشيله في عربيتك، ومَرّة تبات برة وتبيِّتني مَيتة في جلدي، ومرة واحد مخطوف وقاعدين بربطة المعلم نفكرله في حيلة نهربه بيها، ومرّة ومرّ....

قاطعها بصرامة، وهو يضع يده فوق فمها يمنعها من الكلام:

- حيلك حيلك عليّ،

هو أنا يعني كان ليّ يد في أي حاجة من كل ده.

معرفش، ماليش دعوة.-

- طب عايزاني أعمل إيه؟! أقعد جنبك أحط أكل للفراخ والمِعيز.

تضربه بقبضة يدها في صدره بضيق، وهي تعضُّ على شفتِها السفلى:

- لأ يا أخويا، بَس عايزاك تِخاف عليّ زي ما بخاف عليك.

- وأنا مِش بخاف عليكِ؟!

- لو بتخاف عليّ بجد كنت تاخد بالك من نفسك، وتبعد عن كل المشاكل دي.

- يصمُت قليلًا، وهو يتأمّل وجهها باهتمام وتركيز، كمَن يقرأ خبرًا مُهمًا في الصفحة الأولى من الجريدة الرسمية، ثم يجذبُها من يدها ليجلسا معًا أسفل النافذة، ويُشعل سيجارته ببطء وهدوء:

- أنا عِشت طول عمري بَبعِد عن المشاكل، الدنيا كانت بتطربق، وتتهد من حواليا وأنا ولا على بالي.

دي حتى الثورة قامت وأنا نايم، كنت سامع صوت السِّتات في الشارع بتصرخ ضد الإنجليز هي وعيال المدارس، وكل اللي عملته حطيت مِخدة على راسي علشان ما أسمعهُمش وأكمل نوم.

كنت عايش مِش فارق معايا حد، ولا بفكر في حد، ولا دريان بيا أي حد.

لما جيت هنا، وشُفتكم وعشت وسطكم كل حاجة جوايا اتغيرت.

يُلقي سيجارته من النافذة ويُمسك يدها بكفيه، وهو ينظر إلى عينيها مباشرةً:

- عشان خاطري يا هند، مش عايز أرجع تاني زي ما كنت، أنا كنت ميت وفاكر نفسي عايش.

دلوقتى حتى لو جرالي حاجة، ولا حتى مُت هايتبقى منّي حاجة تتحكي عني، دي أول مرة أحس إنّي عايش وليّا لزمة.

- وهو لازم تعرّض حياتك للخطر علشان تحس إنك عايش؟!

- أنا ما سَعيتش لحاجة من كل ده.

- بس بإيدك تحافظ على نفسك.

- ما حدّش بيموت ناقص عمر.

- وما حدّش بيحُط نفسه قدام الموت، علشان يثبت لنفسه إنه شجاع.

يُقطب حاجبيه بحُزن وضيق، لشعوره بالإهانة من جُملتها ويشيح بنظره بعيدًا عنها:

- آسفة ما أقصدش.

- مش مُهم.

- طب آخر حاجة وأرجوك اسمعني.

قولي.-

- مِش المعلم له رجالة وصبيان.

- أيوه ليه رجالة وصبيان.

- يبقى هما يتصرفوا، ويساعدوا معلمهم، مش إنت إللي مفروض تعمل كده بالذات.

- عندك حق طبعًا، وأنا ما شِيلتش بندقية، وروحت أحارب الإنجليز.. أنا يادوب بدوَّر للراجل على مخرج، ولسه حتى مِش عارفين هو عايش ولا ميّت.

لم يكن الأمر يبتعد كثيرًا عما يحدثُ في بيت «سعيد»، فقد كان يجلس كعادته مُتكِئًا على مقعده الكبير، وأمامه تجلس «وداد» واضعة قدميه في إناء نحاسيّ كبير مُمتلئ بالماء الساخن والملح الخشن، تدلكهما له بيديها المزينة بالكامل بالحناء:

- وما روحتوش ليه لأبويا الشيخ علام؟

- هو فرح يا ولية وبنِعزم الناس؟!

- ما هو أبويا مش أقل من الشيخ مختار.

- يا سِتي لا أقل ولا أكتر إحنا روحناله نستفسر منه مش أكتر.

- بس برضه حتمًا ولا بد تقول لأبويا يروح معاكم تجيبوا المعلم.

- يروح معانا نجيب المعلم؟..إنتِ يا ولية فاكرة المعلم قاعد في دُوار العُمدة ورايحين نِزفه؟.. ده متنيل على عينه محبوس حَدا الإنجليز.

- وإيه يعنى؟! أنا أبويا وإخواتي وولاد عمي عندهم سلاح ياما.

- أيوه ما أنا عارفك تِحبي المصايب وضرب النار زي عينيكي.

- مش أرضنا، يبقى نضربوهم بالجزمة.

- خلاص خُدي أبوكي بقى وإخواتك وولاد عمك وروحوا اضربوهم بالجزمة.

- وإنت مش ها تضرب معانا يا سِي سعيد.

- لأ أنا مش هاضرب، أنا حافي قصاد عينك أهو، ومش لابس جَزمة.

- يا راجل إنت عايز أهل القبيلة ياكلوا وشي.

- ها ياكلوا وشك علشان مش لابس جزمة؟!.

- تضغط بيدها بقوة على قدمه لدرجة أن شعر بالألم.

- ها ياكلوا وشّي، لو عرفوا إن راجلي سَاب بلدياته

محبُوس، وما رفعش سِلاحه على الإنجليز.

- وإنتِ ها تتبسطي لما أرجع لك على نقالة؟!

- يا أخويا الموت علينا حق.

- آاااه، قولي كده بقى، إنتِ ناوية على مُوتي.

- وأنا مالي أنا، ما تقتلهم قبل ما يقتلوك.

- وليه يقتلوني، ولا أقتلهم بس يا بنت الحلال، ما نخلينا في حالنا.

- تدفع قدمه إلى الأرض وتزيح إناء الماء، وهي تقف أمامه بتحدٍ واضعة يدها في وسطها:

- ما هو ده حالنا يا أفندي يا بتاع البندر، ولا إنتَ فاكر إننا ها نسكت طول ما الكلاب دول على أرضنا وناهبين خيرنا وزرعنا.

- حاضر يا كيلوباترا.. مِن عينيا يا نفرتيتي.

من بُكرة الصبح هاروح على معسكر الإنجليز وهاموتهم كلهم.

- أدي اللي باخده منك، نأْورة وبس.

- يهدِّك ربنا، وليَّة عقربة مِش نافع معاكي حاجة.

- العقربة دي إنتَ حِفيت وراها، ولا نسيت؟!

- كنت أهبل، حد ياخد على كلام واحد أهبل.

تلف بجسدها حول نفسها بدلال، وهي تزيح عن غطاء رأسها المُزركش:

بذمتك ما أستاهلش؟!، على رأي المثل «اللي مالوش في البهايم يدبح العشار».

يفتح فمه وهو يتفحصها من أعلى إلى أسفل، كأنه يراها لأول مرة ويعضُّ على شفته السفلى، ويتحركُ نحوها مادًا ذراعيه قبل أن يتعثر بإناء الماء، ويسقط بكل جسده على الأرض وهي تضحك ساخرة، وتمد يدها تساعده على النهوض وتلوي شفتيها يمينًا ويسارًا:

- قوم يا دكري.

(١٠)

وكأنّ «البير» اعتاد زوار جوف الليل يأتون إليه بلا سابق توقع أو تمهيد.

انتفض الجميعُ من نومِهم مفزوعين على صوت الجِمال والأحصنة مُختلطًا بثغاء الماعز الحادة المُزعجة ليحملّ كلٌّ منهم مصباحه، ويهرولُ للخارج ويتفاجأون بعدد كبير من الرجال، بجلاليبهم البيضاء والنساء بملابسهنّ الداكنة الثقيلة والشيلان المُزركشة والسوداء التي تخفي رؤوسهن، كما تخفي البيشة ملامح وجوههن، على العكس من الصغار بملابسهم الفضفاضة القصيرة، ووجوههم اللامعة برغم الظلام.

وقفوا جميعًا في مشهد غريب يمين البئر، يرفعُ كلٌّ من ناجي وسعيد وسيد مصباحًا بيده، وخلفهم هند ووداد بمواجهة زوارهم على يسار البئر، حتى تقدم الصفوف الشيخ «علام» ويقترب منهم لتصيح ابنته «وداد» فور رؤيته، والتحقق من ملامحه على ضوء المصباح، وتهرول ناحيته، وتختفي خلفه وسط الجموع.

قبيلة الشيخ علام تسكنُ جنوب سيدي براني، بعيدة عن مُعسكر الإنجليز بمسافة كبيرة، لكنها تُعَدُّ من أول الأماكن في طريقهم،

بينما رجال القبيلة يدقون أوتاد الخيام، ويربطونَ بهائمهم.

كان الشيخ «علام» يقصُّ على أهل البئر ماذا حدث لهم، ولماذا هُم هنا في هذا الوقت.

لقد هاجمهم الإنجليز مرة واثنتين وثلاثًا، وكادوا ينهون على خير القبيلة برمته، وهم لا حول لهم ولا قوة، أمام أعدادهم الكثيفة، ودباباتهم التي تستطيع ضرب الجبل، وإصابته من مسافات بعيدة.

في الغروب، قدمت لهم عربة بها ثلاثة عساكر أرادوا تعبئتها بالماعز، مما أثار غضب بعض الرجال، وقتلوا منهم اثنين، بينما فَرّ ثالثهم بالعربة، وقرر الشيخ «علام» كبير القبيلة الرحيل ليلًا قبل عودة العساكر وأمامهم دباباتهم.

لولا ظلام المكان لاستطاع الشيخ الوقور رؤية وجه «سعيد»، زوج ابنته وكيف تتسع ابتسامته بشكل طفوليّ كأنّه يستمع لقصة مُضحكة مُسلية، وليس قصة ظلم وقهر:

- الله، وولادك يا شيخ وولاد إخواتك ماشالوش السلاح ليه، وعرّفوا الإنجليز مقامهم؟!

قالها، وهو يضربُ بساعده بطن «وداد»، دون أن يلحظه أحد، وهى بدورها تجز على أسنانِها، وتردُّ له الضربة بأخرى أقوى منها:

- الكترة تغلب الشجاعة يا ولدى، إحنا مايهمناش العساكر، ومعاذ الله إننا نكون جبنات، نهرب زي الولايا.

- أيوه يا شيخ، ما أنا عارف

قالها «سعيد» وهو يُجاهد لكَتم ضحكته.

- لكن يا ولدي، القبيلة فيها حريم وصغار، والعقل بيقول نحميهم قبل كل شيء.

تدخّل «ناجي» في حوارهِما بجدية واضحة:

- إنتَ في أرضك يا شيخ وكلنا رجالتك وولادك.

- عارف يا ولدي علشان كده جيت على هنا من غير تفكير، «البير» مَحدّش يعرفه، ومِش في طريق العساكر، هما دايمًا بيتحركوا جهة الشمال جنب البحر، علشان يتحاموا في سفنهم ومدافعهم، وقت اللزوم.

في الصّباح كان «ناجي» يتحركُ بعربته في طريقة للشيخ «مختار»، وبصحبته «سيد»، صبي المعلم الذي يبدو مُتأثرًا من أجلِه وعلى استعداد تام لفعل أي شيء لإنقاذه.

على غير العادة، كان مجلسُ الشيخ يكتظ بالوجوه، عرف منهم «ناجي» فور دخوله المُجاهد «كامل»، الذي أنقذه من قبل، والمُجاهد «رابح» مُهاجم الإنجليز الشجاع.

تعانقَ الجميعُ بمودَّة بالغَة، وترحاب واضح، وجلسوا مُلتفين يتوسطهم الشيخُ بهدوئه ووقاره.

جاءت كلماتُ الرجل الرصينة؛ مُفسرة كلَّ شيء ومُجيبة عن كلِّ الأسئلة التي تدور بعقل «ناجي».

قائدُ المُعسكر الجديد ندل جبان، لا يعرفُ قلبه الرحمة، ولا يُوقفه بكاء الأطفال، أو صراخُ النساء،

شخص تجرد من كل مشاعر الإنسانية، تشعر بأنه يستلذ بعذاب الآخرين.

لقد جاء، وفي نيته القضاءُ تمامًا على كل رجال المُقاومة والمُجاهدين،

لا يكفُّ عن الحركة هو وجُنوده ليل نهار، وكأنّها حربٌ كبيرة، وليست مجرد معارك محدودة، بين جُنوده وبعض الرجال.

الكلُّ يتحدث، ويُدلي برأيه بين مُحافظ يؤيد الهدوء والاستكانة حتى يفتر القائد ويخفت حماسه، وبين مُتحمِّس ثائر يُريدها حربًا حتى آخر رجل وآخر نقطة دم.

لكلٍّ منهم حُجتُه ودوافعُه، وإن كان الشيخ بحكمته يميلُ للرأى المُنادي بالهدوء والحيلة، فهُم لا يستطيعونَ مُواجهة الدبابات، والمدافع الثقيلة والطيارات مرة أخرى؛ منذ آخر معركة كبيرة بينهم وبين الإنجليز.

الشيخ يُراهنُ على أن ما يحدث في «القاهرة» ويقوده الباشوات الوطنيون ومن خلفهم كل الشعب حتمًا سيجعلُ الأمر مُختلفًا بعد قليل.

الإنجليز كما يعرفونهم ليسوا شُجعانًا مثلهم، يُمكنهم الحربُ في أكثر من مكان،

هم فقط يحتمونَ خلف آلاف الرصاصات وعشرات المدافع، الصبرُ وضبط النفس هما سلاحهما الأول ضد الإنجليز ورعونتهم.

لم يعُد «ناجي» يتمالك جمح فضوله للسؤال عن المعلم «بشارة»، ليُلقي سؤاله بغتة على الشيخ لتأتيه الإجابة على لسان «رابح» الجالس بجواره، وهو يربتُ على ركبته مُبتسمًا:

- ما تقلقش على بلدياتك يا ناجي أفندي، المعلم بخير وموجود في معسكر سيدى براني.

- إنت متأكّد يا شيخ رابح؟

- طبعًا متأكّد يا ناجي أفندي، إحنا مِش نايمين ولا دراويش، ولينا عيون على الإنجليز بتراقبهم، وعلى قد ما تقدر بتجيب أخبارهم، وإلا كانوا خلصوا علينا كلنا من زمان.

- قاطعهم الشيخُ «مختار» وهو مُتأثر:

- يعلم ربنا يا ناجي أفندي مَعزّة المعلم عندنا قد إيه، ده راجل من ظهر راجل وصاحب فضل بإللي بيعمله بقاله سنين، لكن زَى ما إنتَ فاهم، مَحدّش يقدر يهوِّب ناحية المُعسكر.

- ما يكونش عندك هَم يا شيخ، أنا كفاية عليا اطمنت وعرفت إنه لسه حي.

قالها، وهو ينهضُّ واقفًا ويُشير لـ«سيد» ليتبعه.

وقف الجميعُ لتوديعِه، بينما «رابح» يقتربُ منه ويُحدّثه بصوت خفيض:

- أنا تحت أمرك يا ناجي أفندي، في أي حاجة تحتاجها.

- كلك شهامة ورجولة يا شيخ.

انصرف «ناجي» و«سيد» عائدَيْن للبئر، والأخير لا يكفُّ عن الثرثرة، والحديث عن محاسن المعلم «بشارة» وأفضاله عليه، بينما «ناجي» مُحدِّق في الطريق وعقله لا يكفُّ عن التفكير في إيجاد طريقة لإنقاذ «بشارة».

وصلا «البئر»، قبل غروب الشمس الذي أصبح يَعجُّ بالحركة بفعل زوّاره الجُدد،

أكثر من مجلس للرجال، ومثله للنساء والصغار يمرحون في كل مكان.

على عتبة البيت كانت «هند» تجلسُ، وأمامها طفلة صغيرة، بين ساقيها تستندُ إليها بجسدها في استكانة شديدة، وبيدها دُميتها المصنوعة من الصوف، بينما «هند» تمشط لها شعرها الأسود الناعم.

اقترب منهما «ناجي»، وربت على رأس الطفلة الصغيرة المُبتسمة، ودلف للداخل لتلحقَ به زوجته بعد دقيقة.

لم يستغرق الأمرُ وقتًا طويلًا ليقصَّ عليها كلَّ ما حدث، ورغم كل مخاوفها وقلقها ظلت تستمعُ إليه باهتمام دون أن تقاطعه، وهي تمسد له كتفيه من الخلف.

الأفكارُ تختلط برأسه بشدة تكاد تصيبه بالدوار، لا يملك أيَّ خبرة تمهِّد له الوقوف على نقطة بداية، نقطة انطلاق.

لا يعرفُ أين يجد بداية الخيط؛ لحل أزمة المعلم وإنقاذه.

«ناجي» القديم رجل الليل القابع في البارات وبيوت «المقطورات» يَلحُّ على عقله أن ينفض كل ذلك من رأسِه، ويعيشُ فقط،

لماذا يشعر بالمسؤولية تجاه «بشارة»؟!

هو بالكاد يَعرفه، قابله مرات قليلة، ولولا رغبته في إسداء معروف لصديقيه منعم وراضي، لما كان قابله أو حظي بخدماته.

لماذا كلُّ المشكلات ليست من نوعية مشاكل جارته «أم هدى»، يُمكنه حلها وإراحة ضميره فقط ببعض الأوراق المالية؟!

الصراعُ بداخل رأسه يزداد، ويعلو صوتُ العراك بين «ناجي» السكير المنطوي، وبين نظيره حامي «بئر سكران» قاتل عساكر الإنجليز.

يشعر بأنه شخصٌ ثالثٌ ينتظر نتيجة الصراع بينهما ليُعلن ولاءه للفائز، ويمشي في رَكبه.

هو دائمًا يأتي في اللحظات الأخيرة، يصل بعدما يتحرك القطار، وجد عملًا يوم أن رحلت والدته فلم يقدم لها شيئًا سِوى دموعه فوق جسدها المُسجى أمامه في حُجرتهما المظلمة.

كم وَدّ أن يزفَّ لها خبر عملِه، ويرى فرحتها على وجهها بعد سنوات الحرمان والألم.

وصل إلى «نعيمة» بعد أن تمكّن منها المرضُ، وفتك بجسدها الضئيل ليقفَ أمامها، يُشاهد خروج روحها المُنهكة من بين شفتيها المُرتجفتين وهي تودِّعُ عالَمها الحزين بنظرة رضا بقدرها لعينيه.

كلُّ من احتاجوا إليه سحقهم سوءُ المصير، ودائمًا هو وحده الناجي الوحيد.

عرف من «سيد وساخة» أن المعلم لم يكن له مقربون غيره هو وزميله «عطا» المقتول برصاص العساكر،

لن يشعر بغيابهم أحد بالإسكندرية، وإن شعر أحدهم فلن يدفعه ذلك لفعل أي شيء.

«سعيد» الباحثُ عن بطولة أمام أهل وقبيلة زوجته لم يَكُفّ طول النهار عن سرد قصة المعلم لهم، كما لو كان شريكه في نضاله ضد الإنجليز.

هُم يعرفونَ المعلم جيدًا والشيخ «علام»، يعرفُ بكلّ تأكيد ما يفعله، ويقوم به بين القبائل والمُجاهدين.

لكنه بالرغم من ذلك، فُوجئ بمصيره وحزن بشدة لوقوعه بين أيديهم، ورجح بخبرته أن بقاءه على قيد الحياة لن يستمر طويلًا.

كانت خُطوة «ناجي» الأولى- بعد أن حسم أمره وقرر الانتصار لـ«ناجي» الواقف على أرض «بير سكران» يَحملُ على كتفه بندقية الشيخ «راضي»- أن يعرف كلَّ شيء عن معسكر الإنجليز بـ«سيدي براني».

يجبُ عليه أن يقتربَ ويرى ويفهم كل شيء هناك أولًا، قبل أن يقرر ما يجبُ عليه فِعله.

وقف الجميعُ في صفوف مُستقيمة مُتوازية خلف الشيخ «علام»، يؤدُّون صلاة العشاء، وهُم يتضرعون بعدها بالدعاء إلى الله أن ينصرهم ويرزقهم قوة البأس، ولذة الانتصار.

قاد «ناجي» عربته بعد الصلاة، بصُحبة «سعيد» المغلوب على أمره بعد أن ادّعى البطولة أمام الجميع، و«سيد وساخة» الباحث عن الثأر من أجل رفيقه المقتول «عطا»، ولإنقاذ معلمه ومنتشله من الضياع في الميناء، أو أن يلقى حتفه بطعنة من رقبة زجاجة خمر فارغة من لصوص المراكب.

معهم «رشاد» ابن عم «وداد»، العالم بكل سنتيمتر بمطروح كدليل لهم، ومُرشد في رحلتهم التي قرر «ناجي» القيام بها الليلة بعد أن أدرك من كلام الشيخ «علام» أن كل دقيقة تمُرُّ ليست في صالح بقاء المعلم حيًا.

بفضل «رشاد» وصلوا بعد ساعتين أو أزيد بقليل، ليتركوا العربة ويترجلوا بحرص؛ حتى اقتربوا بشكل كبير من المُعسكر.

مساحة المُعسكر كبيرة، يوجد له مدخلٌ رئيسيٌّ يحرسه مجموعة من العساكر، يقفونَ بشكل دائم على جانبيه.

أغلبه أبنية من دور واحد من الطوب، ويتخلل الأبنية خيامٌ ذات أحجام متوسطة، يبدو من مداخلها أن معظمها لإعداد الطعام أو تخزين الحبوب، أو أيِّ شيء له قيمة ضئيلة.

كانت أعينُ «ناجي» تتفحّص كلَّ شيء بدقة بالغة، وتقفُ عند كل تفصيلة بقدر قدرته على الرؤية من على بُعد.

أسوارُ المُعسكر من الأسلاك يُمشطها عساكر سيَّارة على طولها طوال الوقت، ورغم كلمات «سعيد» التي لا تتوقف تسألهم العودة قبل أن يكتشف وجودَهم أحدٌ، فإنّ «ناجي» لم يلتفت إليه أو يُجيبه بحرف.

بعضُ العربات الكبيرة يأتي من خلفهم من الطريق الرئيسي، مما جعلهم يختبئون بسرعة خلف أحد التلال الرمليّة، وهم يشاهدونها تتوقف عند مدخل المعسكر، وينزل من صُندوقها المُغطى بالقماش الثقيل مجموعة من العساكر يترنحون، ويعلوا صوت ضَحكاتِهم.

العساكرُ يَعبرونَ لداخل المُعسكر، والعرباتُ تنحرفُ يسارًا لتتراص بأحد الجوانب المُظلمة، لم يكن فطنوا لها قبل أن تضاء بمصابيح العربات، ليصيح «سيد» بفرحة عارمة:

- عربية المعلم أهي.

كانت عربة المعلم تقفُ وسط مجموعة من العربات الأخرى، فيما يشبه الساحة،

نظر «ناجي» نحو طريق قدوم العربات قليلًا ثم وجه سؤاله لـ«رشاد»:

- العساكر دول جايين منين؟

- شكلهم كده كانوا سهرانين.

- وهو فين هنا مكان للسهر؟!

- في مطروح كلها مفيش، دول أكيد راجعين من إسكندرية.

شخص «ناجي» ببصره مُفكرًا قبل أن يُتمتم:

- أو مِن مكان في طريق إسكندرية.

تحرّك «ناجي» بشكل مُفاجئ، وهو يُشير لهم ليتبعوه، وهو يُهرولُ أمامهم للعودة لعربته، وخلفهم «سعيد» يُجاهد بجسده الضخم للحاق بهم.

على فين يا ناجي أفندي؟

قالها «سيد»، وهو يتدلى من الصندوق الخلفي للعربة.

- في مشوار لازم نِعمله دلوقتى حالًا.

قادَ العربة بسرعة سبَّبها حماسُه، أو الخاطرُ الذي احتل رأسَه في طريقه لاستراحة «بيلين» العجوز.

المسافة بين الاستراحة والمُعسكر قصيرة، قادها «ناجي» وهو مُغلق مصابيح العربة، حتى يستطيع الهرب والاختفاء إذا قابلوا إحدى عربات الإنجليز في الطريق نفسه.

بمُجرد وصولهم، اتفق معهم «ناجي» على أنهم مجموعة من التجار؛ يأتون لمطروح لشراء الزيتون إذا صادف وسألهم أحدٌ، أو ارتاب في أمرهم.

كما توقع بالضبط، لم يكن بالاستراحة سِوى العجوز صاحب الجسد النحيل مُنهمك في توضيب المكان بعد أن غادر زبائنه.

رحّبَ بهم العجوز الذي لا يقول (لا) لأحد، ولا يعترفُ بمواعيد للعمل، وهو يشير لهم للجلوس.

جلسوا جميعًا، وأعين «ناجي» تتلفت في المكان بحثًا عن «إيما».

وضع العجوزُ زجاجات البيرة التي طلبها «ناجي» أمامهم، وعاد لعملِه مرة أخرى؛ يُنظفُ المكان ويرص المقاعد بشكل مقلوب فوق المنضدات.

لم يخب ظن «ناجي» لتظهر أمامه «إيما» بابتسامتها التي لا تغادر وجهها الجميل أبدًا.

قطبت حاجبيها مُندهشة وهى تتفحَّصُ وجوه مُرافقيه، وتتخذُ جلستها في مكانها المُفضل أسفل النافذة.

أشار لها برأسه؛ أنه يريد الحديث إليها؛ لتجيبه بإيماءة من رأسها، وهي تنظر باتجاه زوجها العجوز ليفهم ماذا تعني.

تجرع «ناجي» و«سيد» البيرة، بينما بقي «رشاد» صامتًا لا يفعل شيئًا، مفرود الظهر كأنّه يستعد للدخول في معركة بجوار «سعيد» الذي انهمك تمامًا في تناول طبق «الترمس» بنَهم واضح.

عندما وجد «ناجي» العجوز يتابعُ عمله خلف البار في نهاية الاستراحة تحرك بهدوء للخارج؛ ليقف بجوار النافذة حيث لا يراه من بالداخل:

- بقيتي تيجي كتير

متضايقة؟!

- ضَحِكت بدلال، وهي تسند رأسها على كفها.

- الدنيا برد، والسما مِغيّمة

بُكرة تِصفى، وتبقى شبه عينيكي.

- جاي من إسكندرية؟

- لأ، من البير.

- راجع تانى ولا رايح إسكندرية؟

- أنا جايلك إنتِ.

قطبت حاجبيها مرة أخرى، وهي تفرد جذعها مُحملقة في وجهه:

- إنت بكّاش.

- أنا بتكلم بجد.

- وجاي لي ليه يإللي بتتكلم بجد؟!

- مِحتاجلك.

- وأنا موجودة.

- عساكر الإنجليز بيسهروا هنا؟

- فطنت لسُؤاله لتختفي ابتسامتها، وهي تخفض صوتها:

- طبعًا وكل يوم كمان

دول اللي بييجوا من المُعسكر؟

- قصدك المينا؟

- أيوه، بالضبط.

- مالهم؟!

- طب واحدة واحدة كده، واحكي لي كل حاجة تعرفيها عنهم.

قاربت الشمسُ على الشروق، و«ناجي» يقود العربة وبجواره «سعيد» يَغط في نوم عميق، ويعلو صوتُ شخيره، بينما هو يُفكر ويرتب في رأسه كل ما قصته عليه «إيما».

المكان جاف جدًا، وفقير ولا يوجد للعساكر وجهة غير الاستراحة كلَّ مساء؛ ليتجرعوا كؤوس الخمر بمجرد أن يأتي الليل، وحتى منتصفه.

يقوم العجوز بخدمتهم بمساعدة «إيما» التي تعرف كيف تقوم بذلك، دون أن تُغضب أحدهم، وفي الوقت نفسه لا تعطي أيًا منهم أكثر مما ينبغي.

فَهِمَ منها أنهم يريدون أكثر، ويريدون الكثير من النساء والموسيقى والغناء، كما يوجد ببارات الإسكندرية وحاناتها.

لكن زوجها لا يُريد أن يفعل ذلك؛ خوفًا من أن تجلب المُوميسات البلطجية، ويقع فريسة لهم ويفقد ماله،

فهو يرضى بما مُتاح لديه ما دام ذلك يُعطيه الأمان ويحمي أمواله.

الضباط قليلو الحضور للاستراحة، وإن كانوا يفعلونها من وقت لآخر.

مَرَّت فترة طويلة منذ آخر مرة تذوق فيها طعم النوم، فما كادوا يصلون إلى «البير» واطمأنت عليه «هند» حتى ألقى جسده المُنهك فوق فِراشه، واستسلم للنوم مُقاومًا عشرات الأسئلة في رأسه.

لم يجد في نومه الراحة الكاملة؛ فقد نام جسده المُتعب، وظل عقله يقظًا يُفكر ويُدبر.

يسترجع كلَّ الصور، ويُفنِّدها، ويُراجع التفاصيل بدقة مُتناهية، كأنه يخشى من أن تهرب من رأسه ما سجَّلته عيناه للمُعسكر.

المُعسكر لا يبدو حصينًا منيعًا يستحيل اختراقه، وأيضًا لا يُمكنه قبول فكرة أن الاقتراب منه أمر سهل يفعله، كما يفعلُ أيَّ شيء.

شخصان برأسه يتصارعان، أحدهما يدفعه لشد قبضته، والمُضي في قراره، ويُحاول اختراق المُعسكر، والآخر يُذكِّره كل ثانية بعدد الجنود

الكبير، وشكل سُفن الإنجليز الحربيّة، التي كانت تقفُ في الميناء، خلف مباني المُعسكر وخيامه، شامخة مُرتفعة، كما لو كانت وحوشًا عملاقة متحفزة لنفث لهيبها في وجه من يُحاول الاقتراب.

«نعيمة» كانت ستموتُ على أيِّ حال، فوق الفراش نفسه، والوقت ذاته، حتى وإن لم يكُن بجوارها ودموعه تتساقط من مُقلتيه تبلل جفاف وجنتيها.

كانت ستموتُ قبل أن تسمع كلمة «أحبك»، وهي تخرج من بين شفتيه المُرتعشتين،

لم يمنع عنها الموت، لكنه منع عن جُثمانها الإيذاء والإهمال، أو أن يلقى به في مقابر الفقراء دون تكريم وصدقة توزع على روحها.

لو أنَّ الموتَ تأخر دقائق عن موعده مع والدته، لكان استطاع زف خبر وظيفته إليها، ورأى الفرحة وهي تكسو وجهَهَا الحَزين.

سنوات كان يَسمعُها، وهو في فِراشه دافئًا رأسه في حائطهم الرطب تتضرعُ بجواره بخشوع وسكينة: «هوِّنها علينا يارب، لأجل حبيبك النبي».

كان يُسارع الخُطى عائدًا إليها؛ يُمنّي نفسه بنظرة فرحة من عينيها، حمراء اللون دائمة البكاء، وأن يسمعها ولو لمرة واحدة تنظر للسماء، وهي تقول: «ياما إنت كريم يارب».

لا شك أنها عرفت أنه وجَدَ وظيفة، وعرفت النقود طريق بذلته المُهترئة لتصبح لها وطنًا وسكنًا دائمًا.

بالتأكيد عرفت كل ذلك؛ فقد سمع الشيخ ذات مرة يقول: «إن الأموات يشعرونَ بنا»،

على يقين أنها عرفت في عالمها الآخر أنه لم يترك جارته «أم هدى» وحدها، تواجه توحُّش الدنيا والحَاجَة، وأغدق عليها من مالِه، هي وأطفالها حتى لا تلقى مصيرها نفسه، وتقضي ليالي كثيرة تؤثره على نفسها، بنصف رغيف الخبز الذي لا يملكان غيره.

هذه المرة لن يأتي كعادتِه مُتأخّرًا، يُشاهد النهايات؛

استيقظ ليلًا بعد أن ساد الهدوء «البئر»، وخلد الصغار صنّاع الصخب للنوم.

«هند» مُمَدَّدة بجواره تشبه الملائكة، يتأمّل وجهها وملامحها البريئة، ويرى الوجوه تتداخل أمامه،

تحبه مثل «نعيمة»،

تؤثره على نفسها مثل «والدته».

تخافُ عليه، وتلومُ عليه تصرفاته مثل «أم هدى»،

يشعر بأنها قدر محتوم كُتب عليه جعله يعشقها، مُنذ رؤيتها، دفعة واحدة ودون مُقدمات.

وكأنّ كل ما حدث وكل هذه الرحلة كان فقط ليصل إليها بالنهاية، ويُلقي خطاياه كلها خلف ظهره، ويتوضأ بين يديها بحبها له، وطهر مشاعرها.

لم يعُد يشعر برغبة في تناول الخمر مُنذ زواجِهما،

في البداية كان يخشى من أن تزعجها رائحة فمه، فلا يشربُ إلا بعد نومها، حتى أصبح يعتاد وتقل رغبته، ويُفضل البقاء بين ذراعيها والاستئناس بها، حتى يغلبه النومُ.

أحكم الغِطاء الثقيل فوق جسدها، ووضع الشال الذي صنعته له فوق كتِفه، وخرج لعله يَجدُ مَن هو مُستيقظٌ مثله.

الجو بالخارج شديدُ البرودة، جعله يجلسُ مَحتميًا بجدار البيت أمام «البئر»، وهو يُفكِّر مُجددًا في حل لمساعدة المعلم.

يعلم أنه قد يفشل، ولكن هذا لا يُحبط عزيمته، بل يُزيده رغبة في فعل أي شيء حتى ينتصر لـ«ناجي» الجديد، الذي اكتشف أنه مُستوطن بداخله منذ أن جاء إلى «البئر».

قطرة ماء غليظة تسقط على جبينه، تعقبها عدة قطرات تعلن سقوط المطر،

يُخرج من ملابسه علبة دخانه، وينجحُ بعد عدة محاولات في إشعالِها، وهو يُحرِّك الشال يُغطى به رأسه مع تزايد سقوط المطر.

الهواءُ يشتد مُنذرًا بقدوم عاصفة، حتى إنّ سيجارته تطير دون إرادته من بين أصابعه في اتجاه «البئر»،

بتلقائيّة يُحاولُ تعقبها والإمساك بها، وهي في الهواء حتى تسقط وتنطفئ.

بمُجرد أن تلامس الماء، الذي يُغطي الأرض،

يلوي شفتيه، ويتحرك للعودة لمكانه، قبل أن يتوقف فجأة ويُعاود النظر إلى السيجارة مُحدقًا بشدة، ثم يرفع الشال عن رأسه، ويُحاول النظر للسماء، ولا يستطيعُ فتح عينيه من قوة سقوط المطر.

يمسحُ وجهه، ويعودُ للبيت والفرحة والحماس يتمكنان مِنه بِكلِّ قوة.

(١١)

غادر الجميع مضيفة بيت الشيخ «مُختار»، ولم يبق غير «ناجي»، ورفيقه «سعيد»، القابع أمام صَحن النار في المُنتصف يمُد يديه فوق لهبها، بحثًا عن الدفء ومعهما الشيخ «رابح».

الشيخان يستمعان بإنصات وتركيز لخُطة «ناجي» في الهجوم على المُعسكر ومُحاولة إنقاذ المعلم «بشارة».

يتفاجأ بأن هُناك آخرين مُحتجزين في المُعسكر بحوزة الإنجليز، وأن النجاح في مُهاجمة المعسكر واقتحامه يعني إنقاذ الجميع وليس المعلم فقط.

الشيخ «مختار» يبدو عليه الهُدوءُ، بعكس «رابح» الذي يظهر عليه الحماسُ واضحًا جليًا من قبل حتى أن يستمع لتفاصيل الخُطة.

الشيخُ الكبيرُ يرى أن مُهاجمة المُعسكر خُطوة بالغة الخُطورة؛ ستحوِّل الإنجليز إلى وحش غاضب مجنون، لا يعرفُ أحدٌ مدى غضبه وردّ فعله.

يَخشى على أهل المِنطقة والنساء والأطفال من دانات الدبابات والمدافع، وهجوم الطائرات.

ما زال عالقًا بذهنه مشاهدُ هجومهم من قبل بعد معركة «وادي ماجد»، وكيف لم تحملُ قلوبُهم أيَّ رحمة، وهم يضربون بطائراتهم كلَّ مكان دون تفريق أو تمييز.

هدوء الشيخ الحكيم كان صخرة كبيرة؛ يتحطم عليها حماس «رابح»، الذي يتسمُ بالرعونة.

غادر ناجي وسعيد في طريقهما إلى سيدي براني؛ لتوصيل بعض الثمار بعد أن وعدهما الشيخ «مُختار» بأن يناقش الأمر مع شيوخ القبائل والعائلات، والوصول إلى قرار بأقصى سُرعة.

كان يقودُ العربة شاخصًا بصره، يُفكر في خُطته مرات ومرات، غير مُهتم برفيقه «سعيد» الذي لم يكف لحظة واحدة عن الحديث معه حول الرضا بالقضاء والقدر، وأن الله لا يُكلف نفسًا إلا وسعها، في مُحاولة فاشلة منه لصرف نظره عن خُطته ورغبته في إنقاذ المعلم السجين.

لسماء تظلم سريعًا؛ بسبب الغيام، وهما في طريق العودة من «سيدي براني»، وكما تنبأ «سعيد» يتساقط المطر قويًا كثيفًا من أول لحظة ليتوقف «ناجي» بالعربة مُرغمًا حتى يتوقف المطر.

بعد ساعة أو أكثر بقليل توقف سقوط المطر، و«ناجي» يُقرر الذهابَ إلى الاستراحة حتى الصّباح بدلًا من «البئر».

هو يعلمُ في قرارة نفسه أنه لا حاجة له لفعل ذلك، وأن الطريق إلى «البئر» لا يختلفُ كثيرًا عن «الاستراحة»، ولكنّ شيئًا بداخله يدفعُه لمُحاولة رؤية «إيما».

لا يعرفُ على وجه الدقة حاجته لذلك، ولا يعرفُ سببًا واضحًا في شعوره المُستمر برغبته في لقائِها.

لا يُمكن أن يكونَ عاشقًا لها، وهو يحملُ بقلبه حُبًا كبيرًا صادقًا لزوجته «هند».

لكنّ شيئًا ما بداخله يُحرّكه دائمًا إليها، لا توجد امرأة واحدة قابلها لم يشعر نحوها بالمسؤولية، وأنه عليه مُساعدتها والوقوف إلى جوارها، والتضحية من أجلها إذا لزم الأمر؛ حتى وإن كانت امرأة مُتزوجة كـ«إيما».

هناك دائمًا ركنٌ في قلبه، مُخصص لاستضافة أي امرأة تقع في طريقه.

قبل الاقتراب من الاستراحة؛ توقف بالعربة بقوة فجأة حتى إن «سعيد» استيقظ مفزوعًا بعد أن ارتطم رأسه بالتابلوه، وهو يصيحُ:

- الإنجليز.. الإنجليز.. حاسب يا ناجي.

ترجَّل «ناجي» من العربة مُهرولًا باتجاه أحدهم قد لمحه مكومًا على الأرض؛ لتصعقه المُفاجأة بعد أن فطن إلى أنها «إيما».

كانت فاقدة الوعي، مُبتلة الملابس بحالة يُرثى لها، فحمَلها بين ذراعيه ووضعها بداخل العربة، وهو يُحاول تجفيف ملابسها.

خلع مِعطفه الصوفيّ، وأحاط جسدها به، وهو يفرك يديها حتى استجابت له، وفتحت عينيها بصعوبة وهي تحملق في وجهه:

- ناجي!

- مالك؟! وإيه اللي جابك هنا؟!

- بيلين.. بيلين يا ناجي قتلوه.

- مين دُول إللي قتلوه؟!

- امشي من هنا دلوقتي، وهاحكي لك كل حاجة.

تغير وجهة العربة لتحمل ثلاثتهم، عائدين في طريقهم للبئر، و«إيما» لا تكف عن البكاء، وهي تقص عليهم ما حدث.

أحد الضباط بعد أن ثقل رأسه بالخمر، قام نحوها وضمها إليه رغمًا عنها، وهو يحاول تقبيلها، وعندما حاولت منعه، صفعها بيده على وجهها، ولم يتردد لحظة في إطلاق رصاصة على صدر «بيلين» العجوز، الذي حاول منعه عنها.

وظل هو وجنودُه يُحطمون الاستراحة بغضب وجُنون، بينما هرولت مُبتعدة خوفًا منهم لتهرب، لا تعرف إلى أين حتى فتحت عينيها على «ناجي» أمامها.

أصبح الغضبُ مُتمكنًا منه بقوة، وهو يقودُ العربة بأقصى سرعة، وتتلوى بهم بشدة بفعل الوحل في الأرض، غير مُبال بأن تفقد اتزانها، وتنقلب بهم جميعًا.

كل دقيقة تمر عليه منذ القبض على المعلم «بشارة» تزيده كرهًا وحنقًا، ورغبة في الانتقام منهم.

عندما كان الفقرُ يطحنُ والدته، ويفتكُ بها، لم يَجد عدوًا مُحددًا ينتقمُ منه.

عندما ماتت «نعيمة» بين يديه؛ بعد أن تمكّن منها مرضٌ قاتلٌ خبيثٌ، لم يَجد عدوًا واضحًا يثأر منه لأجلها.

كلُّ معاركه القديمة لم تكن مُحددة الأطراف، دائمًا كان خصمُه مجهولًا غير مرئيّ، بلا اسم أو عنوان، المعركة الآن مُحددة الأطراف، خصمه واضحٌ جَليّ، لأول مرة يعرفُ مكانه وأين يجده، وكيف ينتقمُ منه.

العروقُ نافرة في يده القابضة بقوة على مقود العربة، وكلُّ الوجوه تتداخلُ في رأسِه، فيرى وجه «نعيمة» على جسد «إيما» تارة، ويسمع قصتها بصوت والدته تارة أخرى.

وصلوا أرض «البئر» بعد الشروق بقليل، ليجدوا الزوجتين العاشقتين المُخلصتين «هند ووداد» في انتظارهم.

اعترت الدهشةُ وجهيهما، وهما تَريان «إيما» تنزل من العربة، تستند بيدها على «ناجي» ووجها مُلطخٌ بألوان زينتها التي اختلطت فوق ملامحها بعشوائية، تشبه عشوائية تناثر خصلات شعرها، لكنها لم تخف عن أعينهم جَمالها الواضح الفاتن.

- مين دي يا ناجي؟!

نطقتها «هند»، وهى تحدِّق في وجه زوجها، بقوة واضطراب.

- ها قولك بعدين يا هند، مِش وقته.

تدخل «وداد»، وهي تضرب بكفها صدر زوجها:

- وإحنا اللي فاكرينكم بتحاربوا، وقلبنا وَاكِيلنَا عليكم، بَلا وكَسة.

- يا ولية دي سِت غلبانة، كانت ها تروح في شَربة مَيّة، لولا لحقناها.

تفحَّصتها «وداد» من رأسها لقدميها، تتأملُ ملابسها المثيرة، وهى تلوي شفتيها:

- أيوه يا أخويا، باين إنها غلبانة.

ارتباك «إيما» وما رآته ليلة أمس لم يُمكّنها من الدخول معهم في الحوار، أو التعليق بحرف واحد، مُكتفية فقط بالتعلق بقوة بيد «ناجي»، كأنَّها طفلة صغيرة، تتعلمُ المَشيّ.

تتقدم «هند» نحوهما، وتحشر جسدها بقوة بينهما، وهي تفكُ التحام أيديهما، وتمسكُ بكفها بدلًا من زوجها:

- اوعَى إنتَ، سيبهالي.

في بيت «هند» جلسوا يستمعون لـ«ناجي»، وهو يخبرهم بقصة «إيما»، بينما هى تأخذ حمامًا يزيل عنها ما علق بها من وحل الأمس.

الضيقُ الأكبرُ يظهر على «هند»؛ التي تشعر بالغيرة للمرة الأولى، بعد أن رأت «إيما» بجَمَالِها الشديد، وعُري ملابسها الذي كشف عن أنوثة، لا تُخطئها عين رجل أو امرأة.

لم تكن أيّ من السيدتين بحاجة لسؤالهما عن سبب إحضارها للبئر، فقد وضح لهما من قصة «ناجي» أنها تقوم بمُساعدتهما، وبطبيعة الحال لم يكن من الجائز لأي شخص أن يترك امرأة- دون حتى معرفة- في موقف كهذا دون مُساعدتها.

قامت «هند» واقفة فجأة كمَن تذكّر شيئًا مهمًا، ثم دخلت حجرتها، ورجعت وهي تحملُ رداء لها بين يديها، وتقف على باب الحمام مُخاطبة «إيما» من خلفه، لتناولها الرداء، وتعود تجلس معهما، وهي لا ترفعُ نظرها عن «ناجي»:

- والست هانم ها تقعد فين إن شاء الله.

- تقعد في أي حِتة، مِش ده المُهم.

- لأ مُهم، ها تقعد هنا معايا وهتبات جنبي في أوضتي.

تبادل الجميع النظرات، و«وداد» تهز رأسها بابتسامة انتصار لصديقتها «هند»:

- طب وأنا أروح فين؟!

- مَعرفش بقى، اتصرف يا شهم، زي ما أنت عايز.

يدخلُ «سعيد» بينهم، وهو يربتُ على ساق صديقه الجالس بجواره:

- اقعد في المضيفة مع «وساخة».

قطع حديثهم خروج «إيما» مُرتدية فستان «هند» ورغم أنه أكثر حِشمة بكثير مما كانت ترتديه، فإنه لم يُخف ذرة واحدة من جمالها وأنوثتها، حتى إن «وداد» لم تتمالك نفسها لتتمتم بصوتٍ مسمُوع:

- قطيعة، على رأي المثل «الحلو حلو ولو صاحي من النوم».

تقاوم «إيما» ارتباكها، وتجلس وهي تركز بصرها فقط على «هند» التي تبادلها التركيز نفسه:

- ميرسي يا مَدام، عمومًا أن مش هاضايقكم كتير؛ وهاسافر في أقرب وقت.

- مفيش الكلام ده يا إيما، إنتي ها تفضلي معانا.

ترمقه «هند» بنظرة حادة تجعله يرتبك، ويشيح عنها بعينيه:

- «ايما» زيِّها زينا، وزي أي حد في البير موجُوع من الإنجليز.

تصدر «وداد» صوتًا بفمها مُتعجبة:

- عجيبة، أنا كُنت فاكرة الخواجات كلهم تبع بعض.

- لأ يا سِتي، مِش كلهم تبع بعض ولا حاجة، وبعدين إيما مولودة في إسكندرية، وطول عُمرها عايشة هناك.

ترمقه «هند» بنظرة أكثر حِدة، وهى تضعُ أناملها أسفل ذقنها:

- ده أنت عارف عنها كل حاجة بقى.

يَصمُت «ناجي» لثوانٍ لا يجد إجابة، قبل أن ينهض وهو يشد ذراع صديقه:

- قوم بينا نشوف إللي ورانا ونسيب الستات مع بعض.

يفلت «سعيد» ذراعه من يده وهو يصيحُ بطفولة:

- نشوف إيه، وزفت إيه، أنا عايز أنام، ما نمتش من إمبارح.

يُقطب «ناجي» حاجبيه، بعد أن تذكر أنهما لم يناما من الأمس، ليتحرك وهو يُتمتم:

- أنا رايح المضيفة؛ أريح شوية.

يخرج ناجي وسعيد ووداد، ويتركون هند وحدها مع إيما:

- قلبي معاكي يا حبيبتي، ناجي قالي إن جُوزك الإنجليز قتلوه إمبارح.

- آه، مات وارتاح.

- وهو كان إيه إللي تاعبه، هو كان في بينكم مشاكل؟!

- يا مدام....؟

- هند يا حبيبتي، اسمي هند.

- تشرفنا يا مدام هند.

- كمِّلي يا حبيبتي، كان ماله جُوزك؟

- جُوزي كان راجل عجوز، عجُوز قوي كمان.

تقطب «هند» حاجبيها، بقوة وهى ترنو إليها مُحاولة اختراق رأسها، وفَهم ما يدور بها.

- يعني ماكُنتوش بتحبوا بعض؟!

- على الأقل مِش زي ما إنتَ بتحبي ناجي، ولا زي ما ناجي بيحبك.

- وإنتِ عارفة إن ناجي بيحبّني؟!

- طبعًا عارفة.

- إزاي؟! وإمتى؟!

- مِن عَشر دقايق، وأنا شايفة عينه دايمًا عليكِ، قبل كل كلمة بيقولها وبعدها.

تصمُت «هند» وتحاول الكلام، لكن الأفكار المُتضاربة برأسِها تشل لسانها.

تستطرد «إيما»، وهى تحرِّك يدها تعدل وضع الفُستان الجديد، الذي تشعر بضيق من كثرة قماشه.

- وبعدين يا مدام هند إللي متجوز واحدة بجَمالك مِش مُمكن يبص لواحدة تانية.

- بس أنا مِش فاهمة، إنتم إزاي خواجات ومع ذلك الإنجليز يعملوا فيكم كده؟!

- الإنجليز ما بيفرّقوش.

- بس جُوزك شكله كان بيحبك.

- اشمعنى؟!

- مِش مات؛ علشان بيدافع عنك؟!

يرتسمُ على وجه «إيما» شبه ابتسامة صفراء:

- هو كان بيدافع عن الاستراحة مِش عنّي.

- إنتِ ماكنتيش بتحبيه؟

- ماكنتش بكرهه.

- برضه مِش فاهمة؟

- الست طالما ما اتجوزتش الشخص اللى بتحبه وبيحبها يبقى مِش فارقة.

- وطبعًا، دلوقتي هاتدوري على الحُب ده.

تضحك «إيما» بسخرية؛ وهى تربت على ركبتها وتنظر في عينيها مباشرةً:

- هدوَّر عليه في إسكندرية مش هِنا.

في المساء، كانت «هند» تجلسُ وحيدة فوق التبة العالية؛ رغم برودة الجو الشديدة، يتتابع محاق القمر الذي بالكاد يبعث بخيط نور ضعيف، وهى تشد شالها حول جسدها، حتى إنها لم تشعر بخطوات «ناجي» وهو يقترب منها:

- قاعدة هِنا كده ليه؟!

- عادي، حبّيت أقعد شوية لوحدي.

- مالك؟!

- مفيش.

- لأ في، احكيلي.

- تنظر له مليًا؛ وهى تمسحُ كل وجهه بعينيها:

- خايفة؟

- إنتِ طول الوقت خايفة، الأول كُنتِ خايفة تحبيني وبعدها خايفة أسيبك.

- علشان أنا ماليش حَد تاني غيرك؛ أخاف عليه.

- تخافي عليّ، ولا منّي؟

- لو بخاف منك، ما كُنتش اتجوزتك.

يجلسُ بجوارها، ويضمها إليه، ويضعُ رأسها على صدره:

- وأنا صغير ما كانش ليّ حد في الدنيا غير أمي، وكنت بخاف عليها.

- كل ثانية كنت بخاف عليها، بس اكتشفت بعد ما ماتت إنّي ماعملتش حاجة علشانها، غير إنّي كنت بخاف عليها.

- كفاية إنك كنت جنبها.

- لأ مش كفاية، لو كنت عرفت أتحكم في خُوفي، كنت عرفت أعمل لها حاجة غير خُوفي.

- حاجة زي إيه؟!

- الخوف عدوي، خُوفي عليها خلاها تخاف عليّ، أو خوفها عليّ خلاني أخاف عليها.

- مِش فاهمة، يعنى إيه؟!

- الخوف بيحبسنا، ويشلنا ويضعفنا، كنت مُمكن أشتغل بدري شوية وأخفف عنها.

- بس إنتَ كنت صغير؟

- وهي كانت ضعيفة.

- يعني مالكش ذنب.

- لأ، ليا ذنب.

- إيه هو؟

- إني خُفت.

- عايز تقول إيه؟

- الخوف مابيمنعش قدر، ولا بيأخر مكتوب.

- إحنا بشر، وطبيعي نخاف.

- نخاف بس ما يبقاش الخوف هو كل حياتنا، وهو إللي بيحركنا.

- لو ما خُوفناش، مِش ها نقدر نِحمي نفسنا.

- بالعكس، الخَايف جَبان والجَبان ضَعيف، والضعيف ما بيقدرش يحمي نفسه.

- بس أنا بخاف عليك، وهافضل أخاف عليك.

- وأنا بحبك، وهافضل أحبك.

تعتدلُ في جلستها، وترفعُ أحد حاجبيها:

- هي الست إيها هاتمشي إمتى؟

- مِش عارف.

- يعني إيه مش عارف؟!

- يعني مش عارف، يعني أطردها؟!

تضربه في كتفه بغضب، وهي تنهضُ ويسمعها تتمتم:

- خليك بقى في حُضن سي وساخة.

(١٢)

المرة الأولى التي ذهبَ فيها الشيخ «مختار» إلى «البئر»، وبصُحبته الشيخُ «رابح» وبعضُ الرجال، كان وقعُ رؤيتِهم وهُم فوق ظهور جيادهم المَمْشوقة شديد التأثير في نفس «ناجي» الذي أصبح يشعُر بأنه ابنُ هذا المكان وسيده.

امتدت جلستهم ساعات، أخذوا يستمعون فيها لخُطة «ناجي» التي توصل إليها لدخول المُعسكر، ومُهاجمته وإنقاذ المعلم.

الإنجليز يملكونَ العدد الأكبر، والسلاح الأقوى، ومعسكرًا مُحصنًا بالمدافع والدبابات.

سلاحٌ واحدٌ لا يُمكنهم مواجهته، وهو «الطبيعة»؛ فوقت النوة وسقوط الأمطار تقف الطبيعة بجوارهم في معركتهم.

الشيخُ الكبيرُ يستمعُ إليه باقتناع شديد، هو ومَنْ معه، وفاجأه بأن رجال المُجاهدين في كل ربوع مطروح أبدوا استعدادهم للمُشاركة في مُغامرة مهاجمة المُعسكر، رغم تخوفهم من رد فعل الإنجليز، وغضبهم إن فعلوا ذلك.

لقد توصل شيوخُ القبائل والعائلات لقرار الهجوم؛ بعد نقاشات كثيرة، وإجماع الرأي على أن بطش الإنجليز وجنونهم لن يؤثر فيه الهجوم على المُعسكر، بل من الممكن أن يجعل ذلك قادتهم يشعرونَ بالخوف من المُجاهدين، ويخفون من حدة ملاحقتهم للمجاهدين مثلما حدث في الماضي.

المُعسكر به الكثيرُ من السجناء، وليس فقط المعلم «بشارة»، وأن عليهم مُحاولة إنقاذ الجميع، وسيشترك في الهجوم رجالٌ ومجاهدونَ من كلِّ القبائل، حتى قبائل ليبيا في أقصى الغرب ستنضم إليهم.

خُطة «ناجي» مبنيَّة على اختيار التوقيت، وتجنيبهم المُواجهة المُباشرة، والتي من الطبيعي ألا تكون في صالحهم؛ لفارق القوة والسلاح.

الكل يُعلن اقتناعه بالخُطة، ويثنون عليها، ويقرأون «الفاتحة» على أن يكون «ناجى» هو قائد تنفيذها.

شيءٌ ما جعله يرتجفُ من الداخل؛ وهو يُدرك حجم ما وقع على كاهله، الأفندي رفيق فتيات الليل، يقود مجموعة من المُجاهدين لمُحاربة الإنجليز، الأفندي الذي كان يخشى من السير في مظاهرة بها نساء وطلبة، سيحملُ بندقية ويمتطي جوادًا، ويُهاجم العساكر في عقر دارهم.

لو أنّهم رأوه وهو يمشي مُترنحًا تفوحُ منه رائحة الخمر، وعرق «المقطورات» ما كانوا وثقوا فيه أو وثقوا في خُطته.

كلُّ شيء سيُحدده موعد «النوة» القادمة، التي يستطيعُ رجالُ الصحراء توقع موعدها، فعند بداية «النوة»، وهُطول الأمطار بكثافة سيكون الهجومُ.

فرصتهم الوحيدة والجنود يحتمون بالبنايات من المطر، ولا يمكنهم الرؤية الجيدة ولا تستطيع الدبابات والعربات ملاحقتهم في الوحل، ولا الطائرات التحليق فوق رؤوسهم.

بَقي شيءٌ واحدٌ أخيرٌ، يجب عليهم معرفة مكان احتجاز السجناء في المُعسكر حتى تكتمل أركان الخُطة.

النوة بعد ثلاث ليالٍ، كما توقع الجميع، وقد تتأخر ليلة واحدة وقد تأتي في موعدها، وهُم على كل حال يجب أن يكونوا مُستعدينَ خلال الليلة الثالثة، ومن قبلها على علم بمكان وجهة السجن داخل المُعسكر.

بعد جلسة الاتفاق، وعودة الشيخ «مختار» ومن معه للبدء في الاستعداد للمعركة، ظل «ناجي» جالسًا أمام «البئر» يعصر عقله؛ للوصول إلى طريقة لمعرفة مكان السجن داخل المُعسكر.

أخرجه من تفكيره صوتُ «هند» الدافئ، وهى تدعوه للطعام، وحول طاولة الطعام جلس «سعيد» بجوار زوجته يأكل بشراهة، بينما «هند» الجالسة بجوار «إيما» تتابع زوجها بنظرها، وهو شاردُ الذهن، يُمسك قطعة خبز صغيرة، يقضم منها ببطء بالغ:

- مالك يا ناجي، مابتاكلش ليه؟

- هَه، بتقولي إيه؟!

تتدخل «وداد» بصوتها العالي الحاد:

- يا أخويا، الست واقفة على حيلها من الصُّبح بتحضَّر الأكل، وإنتَ ماكلتش لقمة على بعضها.

- لأ، باكل أهو، تسلم إيدك يا حبيبتي.

- لأ مابتاكلش، وسَرحان كمان.

- بفكَّر في حاجة كده، شَغلاني شوية.

ترمقهم «إيما» بنظرة متوترة، ثم تنهض واقفة وهى تهم بالابتعاد:

- آسفة يا جماعة، إني مش مخِلياكم على راحتكم، بعد إذنكم.

يَهبُّ «ناجي» واقفًا هو الآخر، ويُمسك بيدها يمنعها من الحركة، وهو يجذبها للجلوس مرة أخرى:

- يا سِتي اقعدي، الموضوع مش سِر، وأصلًا مفيش سر عليكِ.

لا تستطيع «هند» كتم غضبها وتصيحُ بقوة وتوتر في زوجها:

- طب ما تقولنا في إيه بدل الحيرة دي؟

يرنو إليها، وهو يَخفضُ عينه عن «إيما» المُضطربة:

- بفكر في طريقة أدخل بها المُعسكر؛ علشان نقدر نِحدّد مكان السجن.

تربت «وداد» على كتف «هند»، وهى تشير لها بعينيها كي تهدأ:

- بس كده، دي بسيطة قوي.

يتناثر الطعامُ من فم «سعيد»، وهو يتحدثُ ساخرًا:

- بسيطة إزاي بقى، يا أم العُريف؟

- أي حَد من «السواقي» يدلنا.

يبدو الاهتمام والتركيز على «ناجي»، ويترك الطعام، ويُشعل سيجارته:

- مين «السواقي» دُول؟!

- «السواقي» يا سِي ناجي، اللي بيوصلوا المَيَّة واللبن لعساكر الإنجليز.

- أيوه، يعني مِين هُما، ويطلعوا مين؟

- الناس دي شُغلتهم يحلبوا المعيز، ويبيعوا لبنها للعساكر.

- ونوصل لهم إزاي دُول؟

- قاعدين بره يا أخويا.

تبدو الدهشة على وجوه الجميع؛ فور سماع جُملتها:

- هُما معانا هنا؟!

- أيوه يا سِي ناجي، ما هى قبيلتنا هى اللي كانت بتودِّي اللبن للمُعسكر.

تحدِّق فيها «هند»، وتضرب بكفيها:

- وإنتِ بتقوليها عادي كده؟!

- أومَّال أقولها إزاي؟

يتدخل «سعيد»، بعد أن أزاح طبقه الفارغ من أمامه:

- بقى يا ولية الإنجليز ضاربينكم بالجزمة، وطاردينكم بره أرضكم، وإنتِ بتقولي بنودِّيلهم مَيَّة ولبن؟

- ما هو لو معملناش كده، هايحرقوا القبيلة بإللي فيها.

يفطن «ناجي» لحديثها، ويصيحُ بهم جميعًا؛ ليعود الهدوءُ للمكان ليحاول فَهم كل شيء بالتفصيل منها:

«السواقي» ضريبة تدفعها القبائل المُجاورة للمُعسكر؛ لإمداد الجنود بالماء العذب واللبن الطازج؛ لتجنب بطش العساكر، والحفاظ على ممتلكاتهم وأرواحهم، الأمر لا يقتصر على قبيلة بعينها، فكل ما يهم العساكر وصول الماء واللبن إليهم، بما يكفي حاجتهم.

إذًا عليهم الآن إدخال أحدهم للمُعسكر، على أنه من «السواقي»؛ ليعرف مكان السجن، لكن مَنْ يستطيع فعل ذلك؟، ومَنْ منهم يُجيد اللغة الإنجليزية، حتى يستطيع فهم حوار الجنود وقراءة اللوحات ليستطيع تحديد مكان السجن بدقة.

قبل شروق الشمس كان «ناجي» يقود عربته، وفى صندوقها حمارٌ يحملُ فوق ظهره قربة من الماء، وأخرى من اللبن.

بجواره يجلسُ «سيد وساخة»، وهو يرتدي جلبابًا أبيضَ، وعلى رأسه شالٌ كبيرٌ من القماش باللون نفسه.

بجوار النافذة على الجانب الآخر من كابينة العربة، تجلسُ «إيما» وهى ترتدي رداء «وداد»، المصنُوع من القماش الثقيل المُزركش وفوق رأسها غطاءٌ أسودُ يصل لمُنتصف صدرها، وتتدلى «البيشة» من على وجهها المُزين بالكحل الغامق حول عينيها.

لم تتردد «إيما» فى الموافقة على القيام بهذه المهمة، فهي الوحيدة التي تجيد قراءة الإنجليزية، ولا يوجد غيرها يفعل ذلك.

قد تكون تحمل بداخلها رغبة بالانتقام من قاتلي زوجها العجوز، وفقدانها بيتها ومأواها، وقد تكون تريد إثباتَ أنها غير طامعة بشيء أو بأحد، ووافقت على المُجازفة.

وقد تكون يائسة؛ تريدُ إلقاء نفسها في مُخاطرة قد تنهي حياتها، التي لا تعرف لها غدًا مُحددًا.

لا يهم ما دوافعُها طالما فعلتها، ووافقت على الذهاب معهم إلى هناك، والدخول بمَحض إرادتها لقلب المُعسكر.

قبل المُعسكر بقليل؛ توقف «ناجي» بعربته؛ خلف تبة مُرتفعة، واستعد «سيد» بعد إنزال الحمار للذهاب.

وقف «ناجي» أمام «إيما» وهو يُعدلُ لها «البيشة» على وجهها لتتبقى فقط عيناها الزرقاوان، ناظرة إليه:

- خُدي بالك من نفسك، واتصرفي بهدوء، وحاولي ما تتكلميش ولا كلمة، سيبي سيد هو إللي يتصرف هو فاهم هايعمل إيه بالظبط.

- حاضر، ماتخافش عليّ.

- اوعى يجرالك حاجة، ولا ما ترجعيش.

- هاتزعل لو جرالي حاجة؟!

حدَّق في عينيها بقوة، وهو يرى تلك اللمعة مِنْ فِعل دمعة تود الخروج منها:

- هاترجعي تاني أنا مُتأكد.

تحدِّق فيه، وتأخذ نفسًا عميقًا وهى تتحدثُ بحماس كأنها تداعبه:

- لو ما كُنتش متجوز ما كُنتش سيبتك.

لم يجد وقتًا للرد عليها، فقد تحركت خلف «سيد» نحو المُعسكر.

بعد نصف ساعة كان «سيد» يقف أمام بوابة المُعسكر، يرفع يده لأحد جنود البوابة بيده التي تمسك وعاءً فارغًا؛ إشارة إلى أنهم من «السواقي».

يفتحُ لهم الجُندي البوابة؛ بعد أن دار حولهما دورة كاملة وركز بصره في وجه «إيما»، وهو يرسل لها ابتسامة غزل واضحة، وهي تشيح بعينيها عنه.

مروا بأغلب مَمّرات المُعسكر، وهى تتفحّص كلَّ شيء، وتقرأ كل اللوحات ولم تجد أي لوحة واحدة تشير للسجن.

حتى الجُمل المُتناثرة التي سمعتها من الجنود، وهم يتقربون منهم يُغازلوها بوقاحة لم توح لها بشيء واضح ومُحدد.

كلُّ البنايات ذات الدور الواحد أو الخيام لا تشير إلى أنها خاصة بالمساجين، باستثناء مبنى واحد في أقصى غرب المُعسكر.

وقفَ «سيد» يتأمَّل المبنى بدقة، قبل أن يهمسَ بأذن رفيقته المُتنكرة:

- المبنى ده، مكتوب عليه إيه؟

- مكتوب مخزن ج؟

- غالبًا هو ده السجن؟

- اشمعنى؟!

- بصي كويس، ده المبنى الوحيد اللي مفيش فيه ولا شباك واحد مفتوح، والوحيد اللي شبابيكه من بره حديد.

- تِحب نِقرّب مِنّه أكتر ونتأكد؟

- من غير ما نِقرب، بُصي هناك.

نظرت للمكان، الذي أشارت له برأسها لترى أحد الجنود وهو يجر عربة مُتسخة يوجد عليها خُبزٌ جافٌ موضوعٌ، بشكل عشوائيّ فوق بعضه بعضًا، ويدخل بها لداخل المبنى:

- الأكل المِعفن ده مَحدش ياكله غير مساجين.

- عندك حق، يلا بينا نتحرك.

بخُطوات سريعة تحركا للمُغادرة، وهما يتنفسان الصعداء؛ لنجاحهما في مهمتهما، ومعرفة مكان السجن.

كاد «ناجي» يفقد أعصابه من فرط قلقه، وهو بانتظارهما، حتى لاحَا إليه من بعيد، عائدَين، وسيد يرفع له يده مشيرًا لنجاحهما.

لم يستطع الانتظار؛ ليترك لساقيه العنان، ويهرول نحوهما بفرحة عارمة:

- إنتم بخير؟

- اطمن يا ناجي أفندي، كله تمام، وعرفنا مكان السجن.

كان ناجي يستمعُ إليه؛ وعينه على «إيما» لا يرفعها حتى أشار له «سيد» بإصبعه للناحية الغربية من المُعسكر، وهو يُخبره أن السجن هو المبنى الطويل في أقصى الغرب، خلف جراج العربات.

لم يودوا المكوث أكثر من ذلك؛ ليتحرك بهم «ناجي» للعودة إلى «البئر»،

وبمجرد أن انحرف بالعربة من خلف التبة نحو الطريق إذ بعربة لعساكر الإنجليز تقف أمامهم مُباشرة؛ بعد أن قطع «ناجي» طريقهم فجأة قبل أن يلحظ وجودهم.

لم يعرف «ناجي» ماذا يفعل وقد أُسقط في يده، ووجد نفسه ومن معه في هذا المأزق.

ارتجلَ من العربة ضابطٌ إنجليزيٌّ ضخمُ الجثة؛ تبدو من ملامحه سماجته البالغة، يتوجه نحوهم، وهو يشهر مُسدسه، ويطلب منهم النزول، والهلع يبدو على وجه «إيما» لكن لم يلحظه أحدٌ.

لم يستطيعوا فعل شيء، سِوى الانصياع لأوامره، والنزول من العربة، وهم يرون اثنين من العساكر يقفان خلفه ينتظرون أوامره.

يفحصُ الضابطُ العربة ويلف حولها، ثم يتقدم من «ناجي» وهو يُمسكه من ياقته، ويجذبه بعدوانية نحوه ويُحدثه بلغة ركيكة جدًا، تكاد تُفهم:

- إنتم مين، وجايين منين؟

- إحنا كنا بنودي مَيّة ولبن للمُعسكر.

قالها وهو يُقاوم غضبه ويشير برأسه نحو الحمار في صُندوق العربة.

يُحرك الضابط لسانه فوق شفته السفلى، ثم يبصقُ في الهواء بشكل مُقزز، قبل أن يترك ياقة «ناجي»، ويدفعه للخلف بغطرسة، وهو

يتفحص وجه «سيد»، بعد أن رفع الشال من فوق رأسه، وألقى به على الأرض.

يقتربُ من «إيما»، ويلف حولها، وهو يضرب مؤخرة مسدسه بكفه، وما زال لسانه يتحرك فوق شفته وهو يتفحّصُ جسدها.

يمُدُّ يده يجذب «البيشة» من فوق وجهها عنوة؛ ليدرك مَنْ تكون، ويصيحُ بغضب وهو يُشهر مُسدسه في وجهها:

- إنتِ.. الخمّارة.

يفطنُ «ناجي» أن الضابط عرف هُوية «إيما»، فيلقي جسده كله عليه دفعة واحدة ويسقط ثلاثتهم أرضًا معًا، بعد أن طار مسدس الضابط من يده بعيدًا.

في اللحظة نفسها، التي يُوجّه فيها العساكر بندقياتهم نحو «ناجي» والضابط و«إيما» يهرول «سيد» باتجاه مسدس الضابط، ويصل إليه بعد أن انطلقت طلقات بندقياتهم المفزوعة المُتفاجئة نحوهم؛ لتخترق طلقة بطن «إيما»، والطلقة الثانية ظهر الضابط المُمدَّد فوق جسد «ناجي».

قبل أن يعاود العساكر تعمير بندقياتهم، كانت طلقات المسدس بيد «سيد» قد أنهت حياتهم بطلقات مباشرة، في صدورهم.

قام «ناجي» وهو يصرخ بلوعة، ويجثو فوق جسد «إيما» المُلطخ بدمائها:

- إلحقني يا نا...

لم تُكمل جُملتها، وقد فقدت الوعي ليحملها «ناجي»، ويضعها في العربة، وينطلق بها «سيد» إلى «سيدي عبدالرحمن»، حيث الطبيب، ولأنها أقرب من «البئر».

في إحدى حُجرات منزل الشيخ «مختار» وقف «ناجي» مذعورًا مكلومًا أمام جسد «إيما» المُلطخ بالدماء، والطبيبُ يحاول إسعافها حتى ينهض ببطء ورأس مطأطأ، ويهمس لـ«ناجي»:

- واضح إن انضرب عليها نار من مسافة صغيرة

- يعنى إيه؟!!

- الطلقة دخلت من بطنها وخرجت من ظهرها

- اتصرّف يا دكتور.

يربت الطبيب على كتفه بحزن، وهو يشيح ببصره عنه، ويتحرك مُبتعدًا.

- ربنا معاها.

كَمَن يُحرك قدميه في أقصى أعماق المحيط، يتحرك نحوها، وهو يتأمل جسدها المُرتجف وقطرات العرق فوق جبينها، رغم برودة الجو.

يجلسُ بجوارها ودموعُه تتساقط رغمًا عنه مُنتحبًا؛ يبكي بصوت مُرتفع يسمعُه كلُّ مَنْ في الحُجرة.

تجاهد «إيما» لتفتح عينيها وتنظر إليه، دون أن تتكلم حتى تثقل جفونها وتغلق عَينيها للأبد.

العربة التي غادرت «البئر» وقت الشروق، تعود مع غروب الشمس، يقودها «سيد» وفي صندوقها يجلس «ناجي» حول جسد «إيما» المُغطى، ومعه الشيخ وبعض الرجال،

قبل أن يعرف أحدٌ ماذا حدث.

كان صوتُ الصُّراخ والعويل من حَناجر النساء يملأ أرجاء «البئر».

حمل «ناجي» النعش الخشبيّ من الأمام مع الرجال نحو الجانب الغربي للبئر، ليتوارى جسد «إيما» على مقربة من مَدفن الشيخ «راضي».

عاد مهزومًا منكسرًا ليجد «هند» باكية تنتظره أمام البيت فيُلقي بنفسه بين ذراعيها، وهو يبكي بحرقة وهى تضمه إليها بقوة:

- إيما ماتت يا هند... ماتت قصاد عيني؛ وماعرفتش أعمل لها حاجة.

لم تجد ما تقوله، واكتفت بأن ضمته إليها بقوة، وهى تربتُ على ظهره، حتى شعر بها تترنحُ وهي تحتضنه وتسقط به مَغشيًا عليها.

حملها بين ذراعيه، وهو يصيحُ على «وداد» التي جاءت مفزوعة على صوته، وخلفها أمها و«سعيد» وبعض النساء المُتجمِّعات بطبيعة الحال؛ بسبب الجِنازة.

دقائق قليلة، وخرجت السيدة العجوز «أم وداد» فَرحة مبتسمة، رغم الموقف وهي تزف له أن «هند» (حامِل).

مَشاعرُ مُتابينة مُتداخلة تتمكن منه، لا يستطيع ترتيبها أو فرض سيطرته عليها.

حُزن شديد على موت «إيما» مَغزولٌ حول شعوره بالفرحة لحَمل زوجته، الكل في حالة حزن ووجوم ورائحة الموت تملأ المكان، تتخللها عباراتُ التهنئة المُقتضبة لجلال الموقف؛ بحَمل «هند».

على مدار يومين توافدت جماعاتُ المُجاهدين من كل مكان للبئر.

مُجاهدون من مطروح ومن قبائل «ليبيا» ومن الواحات بالجنوب؛ الكل يُريد الثأر وينتظر أن تبدأ المَعركة.

لم تترك «هند» زوجها وحيدًا، وظلت بجواره تؤنس قلبه المفطور على امرأة ساعدته، ووقفت بجانبه، ولم يستطع حمايتها.

لم تعُد تراها الفاتنة التي تغار على زوجها منها، هى تدرك الآن أنها امرأة تعيسة سيئة الحظ، لم تأخذ من الدنيا غير الألم والشقاء.

تخفف عنه، وهى تمسك بكف يده تضعه على بطنِها؛ ليشعر بجنينها داخل أحشائها، وهى تداعبه لإخراجه من حُزنه، إذا كان يُريد المولود ولدًا أم بنتًا جميلة تشبهها.

الرغبة في الانتقام تسيطر على قلب «ناجي»، تملكه وتتمكن من كل كيانه.

الفقرُ الذي قتل أمه و«نعيمة» صَنعَه وجودُ الإنجليز.

الرصاصة التي اخترقت جسد «إيما» من صُنع الإنجليز.

هى آخرُ شخص كان يجبُ أن يموتُ في هذا المكان، لماذا هي بالذات؟!!

لماذا لم يَمُت هو أو «سيِّد» أو «سعيد» أو أحد المُجاهدين؟!

لم تفعل شيئًا تستحقُ عليه الموت، هكذا بكل سهولة،

«نعيمة» الطيبة ماتت من قبل وظلت «عليّة» اللعوب الخبيثة حية ترزق تمارس مُجونها بكل يُسر.

أمُّه ماتت قبل أن تحيا لساعة واحدة بلا ألم ودُموع.

لا بد أن لهم جزاءً مُختلفًا في آخرتهم، سمعها وهو صغير تخبره بذلك عندما يسألها بحزن: لماذا هما كذلك، حياتهما جافة مملوءة بالشقاء؟

قالت بكل إيمان ويقين، إن الله سيُعوضهما جزاء صبرهما في «جنة» النعيم.

لم يعُد يُفكِّر في حياته وماضيه، لم يعد يتذكر من الأساس أنه ضحية جريمة لم يفعلها؛ عليه تبرئة نفسه منها.

لم تعُد له رغبة في العودة مرة أخرى على الإطلاق،

الشيء الوحيد الذي يعتنقه الآن، أن له ثأرًا هناك في مُعسكر الإنجليز.

هو سيد «البئر»، هو صاحبُ المكان،

الوقت يمُر ببطء وقلبه لا يطيقُ الانتظار، يُريد أن تأتي اللحظة التي يراهم فيها أمامه وينتقم للجميع.

إنّها الليلة الثالثة؛ أول ليلة لانتظار النوة كما توقع العارفون بأمور الصحراء وحركة السماء.

أكثر من ثلاثمائة رجل يمتطونَ الجياد، ويحملونَ البنادق في مشهد مهيب، والنساء والأطفال يصطفون في وداعهم.

«هند» تُقبل جبين «ناجي» وهي مُمسكة بيده تنسال دموعُها دون إرادتها:

- خُد بالك من نفسك يا ناجي، ماليش غيرك.

- خُدي بالك من نفسك ومن البير.

تحرك يده على بطنها، وهى ترنو إليه بشجن:

- وابننا يا ناجي.

يُقبل باطن كفِّها، وهو يمتطي جواده، ويتحرك نحو الجَمع.

يقتربُ من جواد الشيخ «رابح»، ويدور حوله بجواده، قبل أن يمسك بيده ويرفع عاليًا، وهو ينظر نحو الجمع:

كلنا راجل واحد ورا الشيخ «رابح».

فَهمَ «رابح» مغزى «ناجي» من أن يؤكد قيادته للمعركة، فينظر له بامتنان واعتزاز، وينطلقُ بجواده والكل يتحرك من خلفه.

الجمعُ يتحرك بسرعة على يمين قرص الشمس الأحمر الذي يتوارى عن يسارهِم؛ يودِّع رملَ الصحراء؛ ليُخفيهم عن الأعين بإفساح المجال للظلام الدامس في ليلة لا يظهر فيها القمرُ.

الجو يزدادُ برودة، لا يشعُر بها الرجالُ المُشتعلة قلوبهم للإجهاز على عدوِّهِم.

السماءُ تزمجر من فوق رؤوسهم بصوت الرعد القاسي، وترسل خيوط نور من فوقهم بالبرق المُتعاقب كدليل على أن النوة قد بدأت بالفعل.

- المعركة الليلة وليس غدًا

قالها «رابح»، وهو يعدو بجواده في المقدمة، وقد بدأت السماء تُسقط عليهم قطرات الماء السميكة بكثافة بالغة.

اشتد الظلامُ، واشتد المطرُ عندما وصل الجمعُ خلف التبة.

المشاعرُ تهيجُ بقلب «ناجي»؛ وهو يتطلعُ للمكان الذي سقطت فيه «إيما» تروي الأرض بدمائها.

المُعسكر يظهر من بعيد، يتحرك قماش الخيام بقوة من شدة الهواء يكاد يقتلعها من مكانها.

أشياء تتساقط من فوق الأبنية، وبعض المصابيح العملاقة تنفجر وتنطفئ بفعل المطر الشديد.

الماءُ الساقطُ من فوق التبة يتحركُ كفيضان باتجاه جانب المُعسكر الغربيّ يغمرُ جراج العربات يكاد يغطي عجلاتها تمامًا،

الكل في وضع استعداد للبدء بتنفيذ الخُطة في الحال.

الفرقة الأولى قرابة المائة رجل يتحركون نحو الجانب الشرقيّ للمُعسكر، ومعهم براميل «الجَاز».

يَصلِونَ بعد قليل ويبدءون في إشعال النار بإحدى السفن الحربيّة، وإلقاء زجاجات النار من نوافذ الأبنية القريبة منهم.

الكلُّ يقفُ مشدودًا في ترقب؛ ينتظر نجاح الفرقة الأولى في مُهمتها.

إشعالُ النار وسط العاصفة وسقوط الأمطار أمر شبه مُستحيل، لكنه حدث ونجحوا في صُنعه بخبرتهم الكبيرة لترتفع ألسنة النار، فرأوها جميعًا تزامنًا مع صوت صفارات الإنذار التي انطلقت بالمُعسكر.

العساكر تهرول ناحية الحرائق، وهم يتساقطون على الأرض، بسبب الوحل الشديد.

يرفع «رابح» يده معلنًا الهجوم؛ لتنطلق الجياد مُخترقة برك الماء نحو الجانب الغربيّ للمُعسكر،

صوتُ طلقات الرصاص القادمة من الشرق يدفعهم دفعًا لطريقهم بحماس وثبات.

الوقت اللازم لوصولهم كان كافيًا، ليكون الجانب الغربي شبه خالٍ من الجنود، بعد أن ذهبوا جميعًا بخوف وعشوائية تجاه الحرائق وضرب النار.

اقتحامهم كان سهلًا يسيرًا، حتى وصلوا لمبنى السجن بينما فصيلة منهم تحرّكت ناحية الشرق؛ لصنع حريق كبير في بعض الأبنية بالمُنتصف؛ لحصار الجُنود في حال عودتهم ناحية الغرب مرة أخرى.

رصاصاتُ «رابح» وبجواره «ناجي» الغاضب حد السماء أسقطت حراس السجن في ثوان، ليقتحموه ويخرجوا عشرات السجناء ومن بينهم المعلم «بشارة» الذي هرول ناحية «ناجي» بمجرد أن وقع بصره عليه.

وقفَ المعلم مشدوهًا بجوار «ناجي»، الذي يمتطي جواده كأنّه أحدُ فرسان العصور الوسطى، وبيده بندقية الشيخ «راضي» يرفعها للسماء.

يتطلع إليه المعلم بفخر ودهشة بالغة، والابتسامة تملأ وجهه وهو يضع يده على ساقه:

- مِش قلتلك يا ابني قبل كده مالكش دعوة بالمُجاهدين إنت جاي تستخبى من مُصيبتك، ولا جاي تِعمل بطل.

يتلفت المعلم حوله، ثم ينظر لـ«ناجي» قاطبًا حاجبيه:

- أومَّال فين الواد «سعيد».

- ملقيناش حصان يتحمِّله.

قطع حديثهما «سيد» الذي اقترب منهما، وبيده جواد من جياد إسطبل المُعسكر يدفعه نحو المعلم ليمتطيه، وهو يحضنه ويربت على كتفه:

- حمد الله على السلامة يا معلم.

- يا بن الكلب يا «وساخة» ده أنا افتكرتك مُت.

- عمر الشقي بقي يا معلم.

- تسيبني أتحبس وتهرب يا واطي.

صرخ فيهما «ناجي» لينهيا حديثهما الغريب، ويتحرك الجميع خلف «رابح» في انسحابهم مُبتعدين عن المُعسكر؛ بعد أن أشعلوا النار في أغلب أركانِه.

مسافة كبيرة قطعوها في طريقهم للبئر، وما زالت ألسنة النيران واضحة لهم تتحدى غزارة الأمطار من شدتها.

لم يمنع المطر من بقى بالبئر من الوقوف فوق التبة؛ يتطلعون بقلق وترقب عودة المُجاهدين.

السماءُ توشكُ على الانتهاء وقطراتُ المطر أصبحت بطيئة مُتباعدة، عندما ظهر الجمع قادمًا من بعيد يعدو أمام قرص الشمس الذي يتحركُ من أسفل لأعلى من خلفهم؛ يُعلن شروق اليوم الجديد.

الأجسادُ تتلاحمُ بالعناق، والأطفالُ يصرخونَ فرحين وهم يلقون أجسادهم في أحضان آبائهم؛ العائدين مُنتصرين لم ينقص منهم فردٌ واحدٌ.

«ناجي» يتفحّص الوجوه يبحثُ عن «هند»، ولا يجدها بين صفوف المُنتظرين.

«سعيد» يهرول نحوه ويُعانقه بفرحة؛ لعودته سالمًا، ومعه المعلم «بشارة».

يسأله عنها، ولكنه لا يعرفُ أين توجد؟

يمتطي جواده مرة أخرى؛ ويعدو نحو الجانب الغربي للبئر.

يجدها هناك، جاثية أمام قبر أبيها الراحل، تشعر به، تهرول نحوه؛ لا تتمالك نفسها من البكاء بفرحة عودته.

يتعانقان، ويختلط ماءُ المطر المُنساب من رأسه المُبتل بدموعها، وهى تحدِّقُ فيه بقوة وتضع كفيها حول وجهه:

- مِش قلتلك ما تخافيش

- فِضلت أدعي لك لحد ما رجعت.

- وا دِيني رجعت، اوعي تكوني لسه خايفة.

- طول ما أنا بحبك هافضل أخاف عليك.

- وأنا هافضل أقولك ما تخافيش.

- مش جايز الإنجليز يجولنا البير، وينتقموا مننا.

- وإحنا مش هانسكت، إحنا أصحاب البير.

- هانقدر عليهم؟!

- زي ما قدرنا المرة دي هانقدر كل مرة؛ لَحَد مايتبقاش ولا واحد منهم.

ينظرُ نحو قبر «إيما»، ويهز رأسه، وهو يزفر بقوة، ثم ينظر لقبر الشيخ «راضي»، ويخلع البندقية من كتفه، يُمسكها بقبضته بقوة:

- طول ما بندقية الشيخ «راضي» فى إيدي ماحدش هايقرب من البير.

يتحركان معًا، وهى تلفُّ ذراعها حوله، لينضما لجُموع المُجاهدين، وأهل «البئر»، ويحتفلون بالنصر بعد أن ارتفعت شمسُ الصباح، وتوسطت السماء..

سماء «بير سكران»..

تمَّت